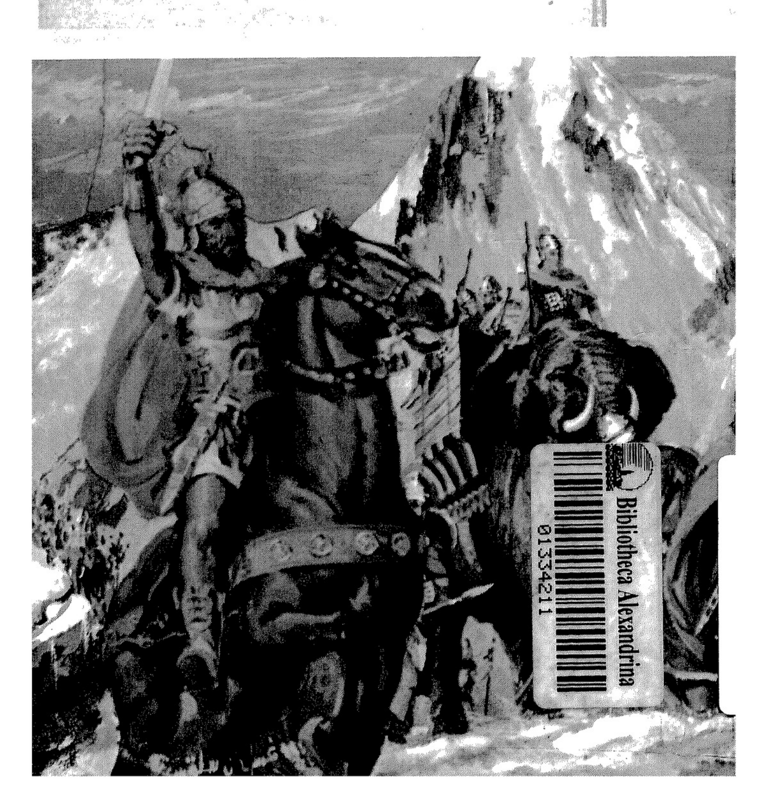
أعلام

هَنيبعَل

مبرّزون





هنيبعل

أعلام مبرّزون
مِنَ الشَرق والغَرب

هَنيبْعَلْ

٢٤٦ - ١٨٣ ق.م

دار الشرق العربي
بيروت شارع سورية - بناية درويش

سلسلة في عشر حلقات تعرض سيراً موجزة
لأعلام مبرزين من الشرق والغرب

١ ـ الإسكندر الأكبر
٢ ـ هنيبعل
٣ ـ أبو العلاء المعرّي
٤ ـ ابن بطوطة
٥ ـ ابن خلدون
٦ ـ كريستوف كولومبوس
٧ ـ وليم شكسبير
٨ ـ نابوليون بونابرت
٩ ـ ليون تولستوي
١٠ ـ المهاتما غاندي

كتبها وأشرف على إصدارها
الدكتور صالح الأشتر

سلسلة صغيرة تغنيك عن مكتبة كبيرة

مقدمة

يتحدرُ **هنيبعلُ** (هانيبالُ كما تُسمّيه المصادرُ الأوربيةُ) **بطلُ قَرْطَاجَةَ** العَبْقريُّ، من أسرةِ **برقةَ** العظيمةِ، **وهي واحدة من أشرافِ** الأُسَرِ في مدينةِ **صُورٍ** السوريةِ التي **أسْهمتْ في** بناء **قَرْطاجةَ على** الساحلِ الشماليِّ من افريقيةَ، وإقامةِ امبراطوريتِها **الكبيرةِ، التي** بَسَطتْ سيادتَها على حوضِ البحرِ الأ بيضِ **المتوسطِ لِفترةٍ طويلةٍ من** التاريخِ القديمِ، قبلَ أن تتمكَّنَ الجُيوشُ الرومانيةُ **المُغيرةُ عليها من** تدميرِها وتخريبِها وإزالةِ دَوْلتِها وحضارتِها **من الوُجودِ**.

وهنيبعلُ الذي **قادَ الجُيوشَ القَرْطاجيَّةَ** عَبْرَ أوربةَ، **واجتازَ بها** قُنَنَ الجبالِ الوعرةِ في سِلْسِلَتَيْ البيرنة والألْبِ، **حتى وصلَ بها إلى أبوابِ روما، في** حملتِه الكُبرى، هو واحدٌ من الأعلامِ العباقرةِ المُبرِّزينَ، وكبارِ القادةِ الفاتحينَ، والباحثونَ إلى **اليومِ يَعُدُّون قيامَه** بهذه المُغامرةِ المُذهلةِ، ونجاحَه مع **فِيَلَتِهِ وجُيوشِه ومُعِدّاتِه الضخمةِ في عُبور الألْبِ** من المُعجزاتِ، وقد سبقَ بذلك قائداً عبقرياً آخرَ هو نابوليون بُونابرت، بألفَيْ سنةٍ؛ وكانَ النصرُ دائماً حليفَهُ **في حملتِه الكبرى، التي استمرَّتْ أكثرَ من خمسةَ عشرَ عاماً**، ولولا امتناعُ

مجلسِ الشيوخِ في قَرْطاجةَ عن إمْدادِهِ بما طلبَ من مالٍ ورجالٍ في نهايةِ الحملةِ، لاجْتَاحَ بطلُ قرطاجةَ عاصمةَ الرومانيين وقضى على امبراطوريتِهم الكبيرةِ، لكنَّ ضِيْق أفْقِ ،وسك الشيوخ حالَ دونَ فوزِهِ بالنصرِ الأخيرِ! وقد كلَّف غَباؤهم قَرْطَاجةَ ثمناً غالياً، لا أغلى منه، ففي عام ١٤٦ ق. م، بعدَ أقلَّ من نصف قرن على تَراجُعِ هنيبعل عن أبوابِ روما، **تمكنتِ الجيوشُ الرومانيةُ من تَدميرِ قَرطاجةَ وإزالتِها من الوجود!**

وفي عرضِنا لمراحلِ حياةِ القائدِ القَرطاجيِّ الأعظمِ، نتابعُ قصةَ أمجادِهِ وانتصاراتِه إلى الفصلِ الأخيرِ الذي انتهى بمأسَاتِه البُطوليةِ الحزينةِ.

الباب الأول

قرطاجةُ قبلَ ميلادِ

بطلِها هنيبعل

٨١٤-٢٤٦ ق. م

ـ ١ ـ

قبلَ أكثرَ من ألفَيْ عامٍ على ميلادِ المسيحِ هاجَرَ **الكَنْعانيّونَ** من الجزيرةِ العربيةِ، واستوْطَنُوا الشواطىء الشرقيةَ من حوضِ البحرِ الأبيضِ المتوسطِ، وقد **عُرِفوا فيما بعدُ بالفِينيقيِّينَ**، وهي التسميةُ التي أَطلقَها الإغريقُ عليهم فتَنَاقَلَها عنهم الرواةُ والمؤرِّخون.

كانت مدينةُ **(صُور)** حاضرةَ هؤلاء الكنعانيينَ، ومنها **خَرجتِ امرأةٌ كَنْعانيةٌ** جَليلةُ القَدْرِ، اسمُها **(أَلِيسارُ بنتُ موتن) وأَسّستْ مدينةَ (قَرْطَاجَةَ)** على الساحلِ الشماليِّ من إفريقيةَ عامَ ٨١٤ ق. م وهي المدينةُ العظيمةُ التي ستغدو عاصمةَ

امبراطوريةٍ كبيرةٍ تَبسُطُ سِيادتَها على حَوْضِ البحرِ الأبيضِ المتوسطِ طَوَالَ حقْبَةٍ مَديدةٍ من التاريخِ القديمِ.

كان والدُ أليسارَ ملكَ مدينةِ صُورٍ، وحينَ أحسَّ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ أوصى بأنْ تشتركَ ابنتُه مع أخيها **بيجماليون** في المُلْكِ، للاستفادةِ من ذكائها وقُوَّةِ شخصيتِها وحُنْكَتِها السياسيةِ وَدَهائها في مُعالجةِ الأُمورِ وإدارةِ المملكةِ، ولكنَّ أخاها لم يَرُقْ له أن تُشارِكَه أختُه في المُلْكِ، فراحَ يَتآمرُ عليها، وتمكَّنَ من أن يَغْتَالَ زَوْجَها، فلم تَجِدْ أليسارُ بُدّاً من اعتزالِ السياسةِ، على الرغمِ من كَثْرةِ الأنصارِ من حَوْلِها، ثم دَبَّرَتْ أمرَ هَرَبِها من مِيناء صُورٍ، حاملةً معَها أموالَها وجواهرَها، فأبْحَرَتْ على أسطولٍ كبيرٍ، رافقَها فيه عَددٌ ضخمٌ مِنَ الأشرافِ الصُوريِّينَ،

وكانوا قد أجمَعُوا على النُّزُوحِ معَها هَرَباً من مُضايقةِ أخيها لهم، وقد عُرِفت أليسارُ في الغَرْب وبلادِ الإغريقِ باسم **(دِيدو) أي الهاربةِ، لِفِرارِها من مدينةِ** صُورٍ على النَّحْوِ الذي قَدَّمناهُ!

ولكنَّ بعضَ الباحثين يُؤكِّدونَ أنَّ أليسارَ غادرتْ مدينةَ صُورٍ **لِتُنْشِىء عاصمةً جديدة** بعيدة عن الخطرِ الآشوريِّ المُنْطَلِقِ من ضِفافِ الفُراتِ، وتجعلَ منها قاعِدة لِحمايةِ المَضايقِ الغَرْبيَّةِ القَريبةِ، وهي مَضِيقُ مَسِّينا (بين صِقِلِّيَةَ وإيطاليةَ) ومَضِيقُ سَرْدِينيا وكُورسِيكا، ومضيقُ أعمِدَةِ مَلْقَرْت (الاسم القديم لِمَضِيقِ جَبَلِ طارقٍ) ولهذا سَمَّتْ أليسارُ مدينتَها **(قَرْت حَدَشْت)** أيْ المدينةَ أو العاصمةَ الجديدةَ،وقد **حَرَّفَ الغَرْبِيُّونَ اسمَها الكَنْعَانيَّ، وجَعلُوهُ (قَرْطَاجَةَ).**

غادرتْ أَليسارُ مدينةَ صُورٍ، وعند مُرورِها بِقُبرصَ استقبلَها السُكّانُ بِحَفاوةٍ وحَماسَةٍ، **فاختارتْ** منهم ثمانينَ **عَذْراء من فَتَياتِ الجزيرةِ،** ونَقَلَتْهُنَّ إلى سُفُنِها، لِتُزَوِّجَهن من الرجالِ المُرافقينَ لها، وتجعلَ من هذه الأُسَرِ نَواةَ الشعبِ الذي سيُقيمُ في مدينتِها الجديدةِ، ثم تابَعَتْ إبْحارَها نحوَ الغَرْبِ، حتى بلغتْ ساحلَ إفريقيةَ الشماليَّ، فأَلْقَتْ مَراسِيَها عندَ خليجٍ ذي مَوْقعٍ دِفاعيٍّ مُمتازٍ، ونَزَلتْ إلى البَرِّ، فاستقبلَها السُكّانُ الأصليُّونَ بأَهازيجِ السُّرورِ، ورحَّبُوا بِمَقْدَمِها، **وكانْ الكَنْعانيُّونَ قد سَبَقُوها إلى إنشاء مدينتينِ** في تلكَ النَّواحي، وهما **حَضْروميتُ وعَتيقُ، ولكنَّ مدينةَ أَليسارَ** سَتُصبحُ بِمَوْقِعِها المنيعِ وعَظَمةِ مَبانيها **أعظمَ مدينةٍ** في شَماليِّ أفريقيةِ، **وستَغْدُو عاصمةً لامبراطوريةٍ عظيمةٍ** مُزْدَهِرَةٍ.

ومرَّتِ القُرونُ وقرطاجةُ تَزْدادُ ازدهاراً واتِّساعاً، وقد ظلتْ علاقاتُها مع **صُورٍ** طيبةً، وكانتْ تَعْتبرُها بِمَثَابَةِ **الوطنِ الأُمّ** لها وللنازحينَ الكَنْعانيينَ القاطنينَ فيها، **وعندما دَمَّرَ الاسكندرُ المَقْدُونيُّ مدينةَ صُورٍ** عام ٣٣٢ ق. م **انتقلتْ سِيادةُ البحرِ منها إلى قَرْطاجةَ**، فأصبحتِ المركزَ التجاريَّ الأكبرَ للبحرِ الأبيضِ المُتوسطِ، ولهذا لم يكُنْ بُدٌّ من وُقوعِ الصِّدامِ بينَها وبينَ روما، إذ يُحاولُ كلٌّ من **القَرْطَاجيينَ والرومانِ** الانفرادَ بالسَّيْطَرَةِ على البِحارِ والمَضائقِ والجُزُرِ، لِتَأْمِينِ مَصالِحِهم السياسيةِ والاقتصاديةِ، ويذكرُ المؤرخون **ثلاثَ حُروبٍ كُبْرى** وقَعَتْ بينَ الطرفينِ: حربانِ منها وقعَتا في القرنِ الثالثِ قبلَ الميلادِ، امتدتْ أولاهما بينَ عامَيْ (٢٦٤-٢٤١ ق. م) وشاركَ في أواخرِها

البطلُ القرطاجيُّ **هَملقارُ برقة والدُ بطلِنا العظيمِ هنيبعلَ** بِنَصيبٍ كبيرٍ، وامتدتِ الحربُ الثانيةُ بين عامَيْ (٢١٩-٢٠١ ق. م) وهي التي خاضَ هنيبعلُ معارِكَها الضاريةَ؛ أمّا الحربُ الثالثةُ فقد وَقَعَتْ في القرنِ الثاني قبلَ الميلادِ وامتَّدتْ بينَ عامَيْ (١٤٩-١٤٦ ق. م) وهيَ الحربُ الأخيرةُ التي انتهتْ بِسُقوطِ قَرْطَاجةَ وتَدْميرِها.

ونحنُ في عَرْضِنا لسيرةِ البطل العبقريِّ هَنيبعلَ سنتابعُ المعاركَ التي خاضَها خِلالَ الحَرْبِ الثانيةِ، وأحرزَ فيها انتصاراتِه المُذهلةَ على الرُّومانِ، أمّا أحداثُ **الحربِ الأُولى فَيَكْفِينا مِنْها ما لوالدِ** هَنيبَعْل دَوْرٌ فيه، وذلك خِلالَ السنواتِ السَّبْعِ الأخيرةِ من هذه الحربِ، التي جعلَتْ **هملقارَ** برقة **يحملُ** الكُرهَ لِلرومان، ويتحرّقُ شوقاً للانتقامِ منهم، **ويُنَشِّىء**

ابنَه على بُغْضِ رُوما، **ويُهيِّئهُ لِتَحْقيقِ حلْمِهِ في سَحْقِها وتَدْميرِها.**

وأما الحربُ الثالثةُ فلا صلةَ لِكتابنا بأَحْداثِها، إذ وقعتْ بعدَ ثُلُثِ قَرْنٍ من وفاةِ هَنيبعل، وبانتهائها **تَمَّ لِروما تدميرُ قرطاجةَ** وإزالتُها من الوُجودِ، بِضَراوَةٍ وَحْشِيَّةٍ لا مثيلَ لها في التاريخِ!

— ٢ —

كان في جُمْلَةِ الأَشْرافِ الصُّورِيِّينَ الذين هاجَروا مع أليسارَ من صُورٍ أسرةُ (برقَة) الشهيرةُ التي أَنْجَبَتْ عدداً من القادةِ والفاتحينَ المَوْهُوبينَ، وأَسْهَمَتْ في بناء قَرْطاجةَ وعَظَمَتِها، ومن أَحْفادِ هذه الأُسرةِ العظيمةِ في القرنِ الثالثِ قبلَ الميلادِ قائدٌ عبقريٌّ كبيرٌ هو (هَمْلقارُ برقة) والدُ بَطَلِ قَرْطاجةَ العبقريِّ الأكبرِ هَنِيبعل، ويبدو أنَّ موهبةَ هَمَلْقارَ العسكريةَ تَفَتَّحتْ في سِنٍّ مُبكِّرَةٍ في المعارِكِ التي خاضَها جُنْدِياً في صِقِلِّيَة، وفي الحَمَلاتِ التأديبيةِ التي كانتْ قَرطاجةُ تُجرِّدُها على العُصاةِ المُتمرِّدين من القبائلِ الافريقيةِ،

فلما بلغَ رُتبةَ القيادةِ ظهرَتْ عَبْقَريتُه العسكريةُ في خبرته بفنونِ الحَرْبِ، وذَكائه المُتَوَقِّدِ وبَراعتِه المُثْلى في التَّخْطيطِ للمعاركِ، وقد عُرف دائماً بشجاعتِه وبَسَالتِهِ وجُرأتِه وإقْدامِهِ، وخَوْضِهِ غَمَراتِ القِتالِ في مُقَدّمةِ الصُّفُوفِ معَ جُنْدِهِ، ويتحدَّثُ المؤرخون عن قُدرتِه على فهْمِ نفسِيَّةِ الجُنودِ وتَقْويةِ مَعْنَوِيّاتِهم وبَثِّ الحَماسةِ ورُوحِ التضحيةِ في قُلوبِهم.

وكانتِ **الحربُ الأولى بينَ قَرْطَاجةَ ورُوما** مُسْتَمِرَّة في البحرِ مُنذُ عامِ ٢٦٤ ق. م، وهي الحربُ التي امتدَّتْ بينَهما **ثلاثةً وعشرينَ عاماً**، وجرتْ فيها معاركُ طاحنةٌ بينَ الطرفينِ، إذ يُحاول كلٌّ منهما أن يَنْفَرِدَ بالسيادةِ على الملاحةِ البحريةِ، والسيطرةِ على المضائقِ والجُزُرِ، لتأمينِ مصالِحِه السياسية

والاقتصاديةِ، كما قَدّمنا، وكان **هَمَلْقارُ** في الأعوامِ الأخيرةِ من تلكَ الحَرْبِ الضاريةِ **على رأسِ الأُسطولِ القَرْطاجيِّ**، عندما وَجَّهَتْ روما حملةً بحريةً إلى قَرْطَاجةَ، **فتصدّى هَمَلْقارُ لِلحملةِ لِيقطعَ عليها الطريقَ**، والتقى الأُسطولانِ في **أكبرِ معركةٍ بحريةٍ في ذلكَ التاريخِ القديمِ**، واستبسلَ الطرفانِ في القتالِ استبسالاً مُسْتَميتاً، وانتهتِ المعركةُ بالسُّفُنِ المُحَطَّمَةِ والعزيمةِ المُنْهارةِ في كلّ طِرفٍ، ورجَعَ الأسطولُ الرومانيُّ إلى ميناء **مَسِّينا** لإصلاحِ السُّفُنِ ومُداواةِ الجَرْحَى، وانقاذِ ما يُمكنُ إنقاذُه، واغْتَنَمَتْ قَرطاجةُ الفرصةَ المُواتيةَ **لِتَعْرِضَ على رُوما عَقْدَ الصُّلْحِ** بينَهما، ولكنَّ مجلسَ شُيوخِها **رفضَ العَرْضَ**، وظنَّ تقديمَه دليلاً على ضَعْفِ قَرطاجةَ، وأصَرَّ على مُوالاةِ الحربِ حتى

إحرازِ النصرِ النهائيِّ!

وهكذا **انطلقَ الأسطولُ الرومانيُّ** بعدَ فتْرَةٍ قصيرةٍ **إلى الشواطىء الافريقيةِ** ثانيةً، دونَ أنْ يَعترضَ طريقَه أحدٌ، لأنّ أسطولَ قرطاجةَ كانَ قد تَجمَّعَ في مِينائِها للدّفاعِ عن المدينةِ من البحرِ، ونـزلَ الـرّومـانُ إلى الأرضِ الافـريـقـيـةِ قُرْبَ مدينة **(كلوبيا)**، وانصرفَ الجُنودُ إلى النّهْبِ والسَّلْبِ وأَسْرِ المَدنيِّينَ ونَقْلِهم إلى السُّفُنِ، وكانَ على رأسِ الحملةِ القُنصلُ **(ريغولُوسُ)**، الذي داهَمَهُ الشتاء فقضى أيامَه في انتظارِ حُلولِ الربيعِ، وعند ذاكَ زَحفَ بالجيشِ الرُّومانيِّ حتى بلغَ مدينةَ **(أَديسَ)** على مَسافةِ خمسةٍ وعشرين كيلومتراً من مَدينة **(تُونُسَ)** وهي آخرُ حِصْنٍ دفاعيٍّ على الطريقِ المُؤَدِّيةِ إلى قَرطاجةَ: وفي معركةِ **(أَديسَ)** ارتكبَ

القَرطاجيُّون أخطاء فادحةً بِحَصْرِ قُوّاتِهم في المُرتفعاتِ الوَعْرَةِ، بَدَلاً من إطلاقِها في السُّهُولِ، للانقضاضِ على الجيشِ الرُّومانيِّ وتَمْزيقِه، وهكذا **أصبحَ (ريغولوسُ) يُهدِّدُ قَرْطاجَةَ** تهديداً مُباشِراً.

غير أنَّ هذا القُنصلَ الرومانيَّ كانَ يَخْشى أن تَطُولَ المعركةُ، وأنْ تنتهيَ مُدةُ ولايتِه قبلَ أن يَحْصِدَ ثِمارَ أَمْجادِهِ، فقدَّمَ للقَرطاجيينَ عَرْضاً بالصُّلْحِ، وقبلتْ قرطاجةُ عرضَه، وأرسلتْ وَفْداً لِلتفاوُضِ عليه، لأنها كانتْ يومَذاك مُهدَّدَة بِحركات القَبائلِ البدويةِ الثائرةِ من حَوْلِها، ولكنَّها عندما وَجدتْ شُروطَ الصُّلْحِ قاسيةً، ردَّت على (ريغولوسَ) بقولِها: **«هذه شُروطُ قائدٍ مُنْتصرٍ، وأنتَ لم تَنْتَصِرْ بَعْدُ!»** وتابعتْ قَرطاجةُ استعدادَها للصُّمودِ والدِّفاعِ.

وهكذا زَحَفَ القرطاجيُّونَ منَ المُرتفعاتِ الوَعْرةِ إلى السُّهول عند مدينة **(تُونُس)**، في مُواجهةٍ حاسِمةٍ للجيشِ الرُّومانيِّ، **وبدأتِ المعركةُ** بِهُجومٍ صَاعِقٍ شَنَّتْهُ الفِيَلَةُ على قَلْبِ الجيشِ الرومانيِّ فسحقَتْه سَحْقاً، وقام الفُرسانُ القرطاجيُّونَ بِحركةِ التفاف سريعةٍ طَوَّقُوا بها جَنَاحَيْ ذلكَ الجيشِ، وآنْجلَتِ المعركةُ عن إبادةِ مُعظمِ الرومانيينَ، إذ هَلَكَ منهم في ساحةِ المَيْدانِ ثلاثونَ أَلْفاً، وأَسَر القرطاجيون خمسةَ عشَرَ ألفاً، وتمكنَ ألفانِ من الفِرارِ بِجُلودهم مَذْعُورِين، وكانتْ **كارثةً كُبرى** على روما؛ أمّا الأسطولُ الرومانيُّ الذي كان يُحاصرُ قرطاجةَ فقد انسحبَ على عَجَلٍ، لإنقاذِ الناجينَ الهاربين، وأقلَعَ بهم وبالأسلابِ التي حُمِلَتْ إلى السُّفُنِ مِنْ قَبْلُ، إلى إيطالية!

غير أنَّ كارثَة الرومانِ لم تكتملْ فصولُها، فعند مُرورِ الأُسطولِ قُرْبَ ساحلِ صِقِلِّيَةَ، عندَ **كامارينَ**، تَعرَّضتْ سُفُنُه لِمَوْجةٍ من **الزَّوابِعِ والأَعاصيرِ**، فَغَرِقَ أكثرُها، بما كانت تحملُ من الأسلابِ والجُنودِ، وبذلك انتهتْ تلكَ الحملةُ المشئومةُ التي أَعَدَّتْها رُوما لِتَدْميرِ قَرطاجةَ، وقد شَمَلتِ الكارثةُ جيشَها في البرِّ والبحرِ، **واستعادتْ قرطاجةُ تَفَوُّقَها الحربيَّ** على خَصْمِها ومنافِسها الأكبرِ.

وكان على قَرطاجةَ بعدَ ذلك أن تُواصِلَ قهرَ عدوِّها، فَتُواليَ الحربَ في صِقِلِّيَةَ وإيطالية، ولكنها لم تشأْ مُتابعةَ القتالِ، لأن بعضَ القبائلِ الافريقيةِ انتهزتِ الفُرصةَ السانحةَ فأعلنتِ الثوّرةَ، مما اَضْطرَّ قَرطاجةَ إلى استدعاء بعضِ قُوّاتِها من صِقِلِّية لإخضاعِ العُصاةِ الثائرين.

— ٣ —

ظلّتْ روما بعد إخْفاقِ حَمْلَتِها على إفريقيةَ وخسارةِ القِسمِ الأكبرِ من أسطولِها الحربيِّ والتجاريِّ في **كارثةِ كامارينَ**، تُوالي الاستعدادَ بحماسةٍ للأخذِ بالثأرِ واسْتِعَادَةِ ما ضاعَ من هَيْبَتِها وَكرامَتِها، وقد أخذتْ **تبني أسطولاً جديداً** يَضُمُّ مائتينِ وعشرينَ سفينةً، وفي عام ٢٥٧ ق. م كان هذا الأُسطولُ يجوبُ مِياهَ صِقِلِّيَةَ، ويُحاصرُ الموانىء القرطاجيةَ فيها، ويَشُنُّ عليها الغاراتِ المُتواليةَ، إلى أَنْ تستسلمَ له، وبعد سُقوطِ مدينةِ **بانُورم** واحتلالِها، تجمَّع الأسطولُ الرومانيُّ في مياهِها، ثم توجَّهَ منها عائداً إلى إيطاليةَ، فداهمتْهُ عاصفةٌ هوجاء

أغرقتْ ما لا يَقلُّ عن مائةٍ وخمسين من سُفنِهِ الحربيةِ، وعَدَداً كبيراً من السُّفُنِ التجاريةِ المُثْقَلَةِ بِحُمولتِها من الأَسْرىٰ والأَسْلابِ!

كارثةٌ بحريةٌ ثانيةٌ تُصيبُ رُوما، أعقبتْها فَترة طويلةٌ من الهُدوء، إلى عام ٢٥٠ ق. م **حينَ عاودتْ روما استعدادَها للقتالِ، لِطَرْدِ القَرطاجيينَ من صِقِلّية،** وإخراجِهم مِن ليليبيوم، وهي أمنعُ مدينةٍ بَقيتْ في أيديهم هناك. ولكنَّ الكوارثَ تَتَوالى على القُوّات الرومانيةِ بَرّاً وبَحْراً، ويظهرُ لِلعِيانِ أنَّ النصرَ سيكونُ في نهايةِ المَطافِ لِقَرطاجةَ، وتَسْتَعِدُّ روما لِسَحْبِ قُوّاتِها من جزيرةِ صِقِلِّيةَ، ونقلِها إلى إيطاليا لِلدّفاعِ عن نفسِها هناك! غيرَ أنَّ **قَرطاجةَ تُمْسِكُ عن آسْتِغْلالِ نَتيجةِ انتصاراتِها،** وتُحجِمُ عن مُتابعةِ الحَرْبِ،

وقد أصبحَ بإمكانِها أن تُوجِّهَ الضربةَ القاضيةَ لِسَحْقِ عَدوِّها وتَدْمِيرِهِ!

لماذا هذا الخطأ الفادحُ الخطيرُ؟

هنا تتعدَّدُ **الإجاباتُ:** فمِنْ قائلٍ إنَّ قَرْطاجَةَ كانتْ مشغولةَ حينذاكَ بِقَمْعِ الفِتَنِ بينَ القبائلِ الإفريقيةِ الثائرةِ، ومِنْ قائلٍ: إنّها تَعِبَتْ من كَثْرةِ الحُروبِ وأصبحتْ تَتَلَهَّفُ على إنْهاء المعاركِ على أيَّةِ صُورةٍ كانتْ! والحقيقةُ أنَّ جهازَ الحُكمِ في قَرْطاجةَ كان يَضُمُّ أكثريةً من التُجّارِ الذين يَنظرونَ إلى سِياسةِ قَرْطاجَةَ ومُستقبلِها بِمِنْظارِ مَصالِحِهم الاقتصاديةِ، وكانَ يَتزَعَّمُ حزبَ التُجّارِ **حَنُّونُ، وكانَ يدعو إلى التفاهم السِلْميِّ مع روما؛** أمّا دعاةُ الحَرْبِ من رجالِ السياسةِ في قَرْطاجةَ فكانوا يَلْتَفُّونَ حول هَملْقارَ برقة والدِ هَنيبعلَ، ويُحاولونَ أن

يُبيِّنُوا لِمُعَارضيهم أنَّ **بقاء روما هو الخطرُ الأكبرُ على قرطاجةَ**، لأنَّ الرومانَ مُصِرُّون على رَفْضِ كُلِّ تفاهُمٍ، وعازمون على مُتابعةِ الحربِ حتى النهايةِ.

عندما تَبَيَّنَ لِقَرْطاجةَ أن **روما مُصِرَّة على مُتابعةِ الحربِ**، أرسلتْ إلى صِقِلِّيّةَ أسطولاً حربياً وجَيْشاً جديداً بقيادةِ هَملقارَ برقة، لإِفهام رُوما أن قرطاجةَ ما تزالُ مُستعدة لِمُواصلةِ الحربِ، وغادرَ هملقارُ قرطاجةَ عام ٢٤٧ ق. م مُخلِّفاً فيها زوجَه الحاملَ، وٱبْنَتَيْنِ صغيرَتَيْنِ كُبْراهُما في العاشرةِ والثانيةُ في الثامنةِ من العُمْرِ، **وباستلامِ هَملقارَ للقيادةِ العامَّةِ بدأتْ عبقريتُه الحربيةُ** تتكشَّفُ لِلْعيانِ، وقد أثبتَ أنّه قائدٌ كبيرٌ يفهَمُ نَفْسِيَّةَ الجُنودِ ويعرفُ كيف يُقوِّي مَعْنَوِيّاتِهِم ويَقودُهم إلى النصرِ، واعترف المُؤَرِّخُونَ له بأنه قائدٌ عَبقريٌّ عظيمٌ له على

جُنودِه سيطرة معنويةٌ لا تُقاوَمُ، وقد بدأ حملتَه على روما بِغَزْوةٍ بحريةٍ خاطفةٍ طافَ فيها على الشّواطىء الايطاليةِ، فَنَهَبَ مُدُنَها وبَثَّ الرُّعْبَ في قُلوبِ سُكانِها ثم عادَ إلى صِقِلِّيَةَ، واستولى على جَبَلِ **(أريكس)** القريبِ من الشّاطىء، وعسكرَ فيه على مسافةِ ألفِ مترٍ منَ المُعسكراتِ الرومانيةِ، وظلَّ أسطولُه مُرابِطاً في مياهِ (بانورم) على مَقْربةٍ من جَبل (أريكس)! **وعَجَزتِ القُوّات الرومانيةُ عن قهرِ هَملْقارَ** أو التصدّي له طَوَالَ خَمْسِ سَنَوات، وهو يزداد قُوة يوماً بعد يومٍ، إلى أَنْ أَدْرَكَ الرُّومانُ أنه لا بُدَّ من القيامِ بعملٍ حاسمٍ، وعمِلُوا على **انشاء أسطولٍ جديدٍ،** أصبحَ على أتمِّ استعدادٍ للعملِ في بدايةِ عام ٢٤٢ ق. م بقيادةِ **القُنْصل (لوتاسيوسَ)**، وقد تمكَّنَ مِنْ تحقيقِ نصرٍ حاسمٍ في

مياه **(ايغوسَ)،** وهي إحدى **جُزُرِ (إيغاتَ)،** وأسفرتِ المعركةُ عن هَزيمةِ القرطاجيين وقد خسِروا أكثرَ من نصفِ سُفُن أسطولِهم، ولاذَتِ السُّفنُ الناجيةُ بالفِرارِ، **وَبِانْدِحَارِ الأُسطولِ القرطاجيِّ في معركةِ (ايغوس) انتهتِ الحربُ الأولى بين قرطاجةَ وروما،** لأنَّ حزبَ التجّارِ في قَرطاجةَ أَبى أنْ يُوافقَ على مُواصلةِ القتالِ بعدَ تلكَ الخسارةِ، وكانَ هو الحزبَ الحاكمَ يومَذاك، وخُيِّرَ هملقارُ بين أن يَعقدَ الصُّلْحَ باسمِ قَرْطاجةَ مهما تكُنْ شروطُ روما، أو أن يُواصِلَ الحربَ وحدَهُ، على مسؤوليتِه دونَ اعتمادٍ على أيِّ موردٍ من قَرطاجةَ: سواء أكانَ بالمالِ أمْ بالرجالِ أمْ بالعَتادِ والموادِّ الغذائيةِ!

وهكذا **أُبْرِمَتْ مُعاهدةُ الصُّلْحِ** بينَ الدولتينِ، وأخذتِ القُوّاتُ القَرطاجيةُ تَتَجمَّعُ في (لِيلِيبيومَ)

للجلاء عن صِقِلّيةَ، حَسْبَ بُنودِ المُعاهدةِ، **واستقالَ هَملْقارُ** من القيادةِ وعادَ إلى قرطاجةَ، عازماً على اعتزالِ السِّياسةِ والانسحابِ من الحياةِ العامّةِ، والأَسى على هزيمةِ قَرطاجةَ في صِقِلّيّةَ يملأُ نفسَه حُزناً ومَرارَة.

الباب الثاني

طفولةُ هنيبعلَ
ونشأتُه العسكريةُ وتكوينُه

٢٤٦-٢٢١ ق. م

ـ ١ ـ

عادَ هملقارُ برقة إلى قَرْطاجةَ لِيُواجِهَ فيها إتّهامَ خُصومِهِ له بالتآمُرِ على الدَّوْلةِ لِقَلْبِ نظامِ الحُكْمِ، وبالطُّموحِ إلى السُّلْطَةِ الدكتاتورية، ولكنَّهم لم يَستطيعوا إثْباتَ التُهمةِ عليه، إلا أنَّ آلامَ نفسِهِ الكبيرةِ لِلهزيمةِ وَجَلاء الجُيوشِ القَرطاجيّةِ عن صِقِلّيةَ كانت تُثيرُ في نفسِه أحْلاماً لِلثأرِ من الرُومانِ والانتقامِ منهم، ولَمْ يَجِدْ بُداً أَمامَ إصْرارِ خُصومِهِ منَ إعْتزالِ السياسةِ والانسحابِ من الحياةِ العامَّةِ، والاقتصارِ على العِنايةِ بِأسْرَتِهِ التي غابَ عنها طويلاً!

كانتْ زوجتُه قد وَلَدَتْ له بعدَ سفَرِهِ إلى صِقِلّيةَ بأَشْهُرٍ طِفْلاً سمّاه **هَنيبَعْلَ** (ومعناه: **حبيبُ البعلِ أو عزيزُهُ، والبعلُ هو إلهُ المطرِ الذي يُخْصِبُ**

الأَرْضَ) وكانَ ثالثَ أَبناء أبيهِ، فقد رُزِقَ هملقارُ برقة قبلَه بِنْتَيْنِ، هما أختا هنيبعلَ اللتانِ تكبرانهِ، **وهنيبعلُ وُلِدَ عام ٢٤٦** ق. م، ورجعَ أبوهُ إلى قَرْطاجةَ عام ٢٤١ ق. م، وابنُه في السادسةِ من عُمرِهِ، وقد رُزِقَ بعدَهُ ثلاثةَ أولادٍ هم **إخوةُ هنيبعلَ**، وهم على التوالي: **أَزْرُوبَعْل** المولودُ عامَ ٢٤٠ ق. م، وولدانِ آخَرانِ وُلِدا عامَ ٢٣٩ و٢٣٨ ق. م على الأرجحِ، لأن الأبَ سيُغادر قرطاجةَ عام ٢٣٧ ق. م ولا يعودُ إليها أبداً!

كانتْ **أمُّ هنيبعل شديدة العنايةِ بطفلِها** الصغيرِ في غيابِ أبيه، طَوَالَ السنواتِ الستِّ الأولى من حياتِهِ، وكانت تُحدِّثُه عن أبيه كثيراً، **وتَزْرَعُ في نفسِه بُذورَ كَراهيةِ الامبراطوريةِ الرُّومانيةِ** التي تستعبدُ الناسَ وتنهبُ ثَرَواتِ

بلادِهم، ويَرْوي بعضُ المؤرخينَ أنَّ أمَّ هَنيبعل كانتْ تضعُ في فِناء دارِها دُمْيَةً على صُورةِ جُنْدِيٍّ رُومانيٍّ، مَحْشُوَّةَ بالرَّمْلِ، وتُعَلِّمُ ابنَها الصغيرَ وهو في السادسةِ من عُمرهِ أن يَشُدَّ قوسَهُ ويرميَ بِسَهْمِهِ في قلبِ الدُّمْيَةِ وفي رَقَبَتِها وفي عَيْنِها، وبذلكَ **دَرَّبَتْ طِفْلَهَا مُنذُ نُعومةِ أظْفارِهِ على البَراعةِ في الرِّمايةِ**، كما عَوَّدَتْهُ أن يركبَ فرسَه دونَ سَرْجٍ مُنذُ صِغَرِهِ، ويقودَهُ دُون لِجامٍ، ويضغطَ بِساقَيْهِ الصَّغيرَتَيْنِ حتى لا يَفْقِد تَوازُنَهُ، وهو يَنْطَلِقُ في عَدْوِه يُسابِقُ الريحَ، وفي يُمناهُ رُمحُه الطويلُ، وبذلكَ أيْفَعَ الطفلُ وقد **أصبحَ فارِساً لا يُبارىٰ في فُروسيَّتِهِ**، ولا مثيلَ له في الجُرأةِ والإقدامِ، ويَزْعُمُ مُؤَرِّخ أنّ هَنيبعلَ **كانَ له فِيلٌ خاصٌّ بِهِ مُنذُ صِغَرِهِ**، وقد كَبرَ معَهُ، وكانَ على خطٍّ كبيرٍ من الشجاعةِ والذّكاء، وكانت الأفيالُ في ذلك الزمن

القديمِ سِلاحاً حَرْبيّاً مَنِيعاً، وكانت الجيوشُ تَتنافسُ على استخدامِها، لأنَّ جِلْدَها السميكَ يُقاوِمُ السِّهامَ ولا تُؤَثِّرُ فيهِ الرِّماحُ ولا السيوفُ، وهذا الفيلُ الذي تَرَبّى ونَشَأَ معَ هَنيبعل هو الذي **سيكونُ قائدَ الأفيالِ في جَيْشِ هَنيبعل الكبيرِ**، وكانَ لِذكائه وآئتِناسِهِ بصاحبِهِ يَأتَمِرُ بِأمْرِهِ ويُطيعُه إطاعَةً كانتْ تُثيرُ إعْجابَ الناسِ واستغرابَهم.

وقد أرادَ هَملقارُ برقه إثرَ عَوْدَتِه إلى قَرطاجةَ أن يَتعوَّدَ ابنُه الصغيرُ شَظَفَ العَيْشِ وخُشونة الحياةِ، ويتعلَّمَ المزيدَ من الفُروسيةِ ويُجيدَها **على يدِ البَرْبَرِ**، وكانوا أمْهَرَ فُرسانٍ عرفَهم العالمُ القديمُ، **فأرسلَ ابنَه إلى الباديةِ لِيعيشَ مَعَهم**.

ويُصَوِّرُ الكاتبُ الفرنسيُّ الروائيُّ **فلوبير** طُفولةَ هَنيبعل المُدهشةَ في كتابه المشهور **(سَلَمْبُو)** نَيُعْطينا عَنِ الطفلِ مَشْهداً حافِلاً بالقُوةِ والعَظَمَةِ والشَجاعةِ

المُبَكِّرةِ الخارقةِ، وفي رأيِ فلوبير أن هَمَلْقار برقة لم يُرسلْ ولَده إلى الباديةِ لِيُعَلِّمَه الفُروسيةَ وحدَها، بلْ لِيُبْعِدَهُ أيضاً عن عُيون الكُهّانِ، خوفاً مِنْ أَنْ يقعَ عليه الاختيارُ لِيكونَ قُرْباناً للآلهةِ، **فقد كانَ الطفلُ يمتازُ مِنْ لِداتِهِ جَميعاً بالقُوّةِ والجُرأةِ والذّكاء المُتَوَقِّدِ،** وقد سألَ أبوه عنه أحدَ الخَدَمِ الذين عُهِدَ إليهم أن يَسْهَروا على سَلامةِ الطفلِ ورعايتهِ، فأجابَ:

«إنَّ ولدَكَ ــ يا مولايَ ــ مُدْهِش عجيبٌ، لا يخافُ الثّعابينَ، ولا يَخْشى الرُّعُودَ، ولا يَهابُ أَشْباحَ الليلِ، إنه يَرْكُضُ في الصحراء المُحْرِقَةِ حـافِـيـاً فـوقَ صُـخـورِ الأوديـةِ، كـأَنَّـهُ راعٍ تَـعَـوَّد شظفَ العيسِ! إنه يَخترِعُ فِخاخاً ويَنْصبُها أَشْراكاً لِلوُحوشِ الضّارِيَةِ، ومنذُ حينٍ باغَتَهُ عُقابٌ كاسِرٌ وٱنْقَضَّ عليهِ، فما ارتعشَ ولا فرَّ هَارِباً، بلِ ٱنْتَضى

خِنْجَرَهُ وراحَ يَطعنُ الطائرَ الجارحَ بِقُوَّةٍ حتى قضى عليهِ، ووقفَ باسمَ الثغرِ مُشْرِقَ الجبَينِ، وخِنْجَرُهُ يَقْطُرُ دَماً، والعُقابُ يَخْتَلِجُ تحتَ قَدَمَيْهِ».

لقد كانتْ عودةُ هَملْقار برقة إلى قَرْطاجةَ وأسرتِه فيها من حَظِّ الطفلِ السَّعيدِ الذي أصبحَ يَنْعَمُ بِرعايةِ أبيهِ وتَرْبيتهِ **وإعْدادِهِ للمُستقبلِ العظيمِ الذي يَنتظرُه**، ولكنَّ خُصومَ هَمَلْقار في حزبِ التُجّارِ ظَلّوا يُوالونَ الكَيْدَ له، حتى بلغَ الأمرُ بهم إلى حَدِّ اتّهامِه بالخِيانةِ العُظمى، وأصبحَ القائدُ الكبيرُ مُهَدَّداً بالمُثولِ أمامَ القَضاء، لولا انْدِلاعُ ثورةِ المُرتزقةِ وإحساسُ قَرطاجَةَ بِحاجَتِها إلى عَبقريةِ هَمَلْقار عندما داهَمَها الخَطَرُ، فاستَدْعَتْهُ لِلقضاء على الثورةِ، وبذلكَ وَضَعَتْ حدّاً لِلمُؤامرةِ التي كان أعداؤه يَحُوكونَها ضِدَّهُ.

ـ ٢ ـ

كانَ **المُرْتَزقةُ الثائرون همْ جنودَ هَمَلْقار برقة** الذين رابَطُوا فوقَ جبل أريكس في صِقِلّيةَ بقيادتِه طَوَالَ سِتِّ سَنَواتٍ، وهم جنودٌ بواسلُ كانَ هملقار يُغْرِقُهم بالمُكافآتِ السخيَّةِ ليُضاعِفُوا الحَمِيَّةَ والاقدامَ في صِراعِهم للرومانيينَ هناكَ، فلما أُبْرِمَتِ المُعاهدةُ بينَ الدولتينِ المُتصارِعَتَيْنِ، وٱسْتقالَ القائدُ وعادَ إلى قَرطاجةَ، بقي المرتزقةُ **يَنتظرونَ أجورَهم ومُكافآتِهم**، وقد قيلَ لهم إنَّ قرطاجةَ ستدفعُ لهم حُقوقَهم عندَ عودتِهم إليها، وقد أشرفَ **حاكم ليليبيومَ (جيسكون)** بعد استقالةِ هَمَلْقار على تَرْحِيلِهم على دَفَعاتٍ، لأنَّ خزينةَ قَرطاجةَ لم

تكُنْ قادرة على دَفْعِ حُقوقِ هؤلاء الجُنودِ بعدَ أَنْ دَفَعَتْ لِرُوما مبالغَ طائلةً إِثْرَ توقيعِ المُعاهدةِ! ولهذا ظلّتْ جيوشُ المُرتزقةِ المتدفقةُ من صِقِلّيّةَ على قَرطاجَةَ لا تُواجَهُ منها بِغَيْرِ الوُعودِ والمُماطَلَةِ والتَّسْويفِ، فَعَمَّ التذمُرُ بينَ الجنودِ العائدينَ، وأقاموا في ضَواحي قَرْطَاجَةَ، وهم من شُعوبٍ وَأممٍ مُتفرِّقةٍ، في انتظار نَيْلِ حُقوقِهم، فلمّا طالَ عليهم الانتظارُ **وانصرَفُوا إلى القيامِ بأَعْمالِ السَّرِقَةِ والنَّهْبِ** والاعتداء على النّاسِ، وعَمَّتِ الفَوْضى، فكّر تُجارُ قَرطاجةَ في وسيلةٍ يُبعِدُونَ بها شَغَبَ المُرتزقةِ عن مَدينتِهم، فطلَبُوا إليهم أن يَرْحَلُوا إلى (سيكا) على بُعْدِ مائةٍ وثمانينَ كيلومتراً في الصّحراءِ، عَنْ قَرطاجةَ، لِيَتِمَّ دَفْعُ حُقوقِهم إليهم هُناكَ، فلما رَحَلُوا ذهبَ إليهم زعيمُ التجّارِ (حَنّونُ)

لِيُصارِحَهم بأن **صُندوقَ الدولةِ عاجزٌ عنِ الدَّفْعِ،** لأنَّ الأموالَ التي كانت فيه دُفِعَتْ لِرُوما، وَفْقَ بُنودِ المُعاهدةِ، وطالبَهم بِتَخْفيضِ المبالغِ المُستحقّةِ لِتَسْتَطيعَ قَرطاجَةُ تَسديدَها!

وجُنَّ جُنونُ المُرتزقةِ، وخرجتْ جَحافِلُهم الثائرةُ من سيكا، زاحِفَةً على قَرْطَاجَةَ، فلما بلغتْ مدينةَ تُونُسَ في طريقِها، بدأتِ المفاوضاتُ، وَوَعَدَ التجارُ بالدَّفْعِ، وتمَّ تعيينُ حَكَمٍ لِلفَصْلِ في مطالبِ المُرتزقةِ، واختيرَ حاكمُ ليليبيوم لذلك، ولكن التجارَ عادوا إلى المُمَاطَلَةِ، ولَجأوا إلى الحيلةِ، وأرادوا أن يَدْفَعوا لِكتلةِ المُرتزقة من **الأوربيينَ،** ويُؤَخِّروا الدفعَ لكتلةِ **الافريقيينَ** وهي تضمُّ الأكثريةَ الساحقةَ من أولئك المُرتزقةِ، واكتشفَ **(ماتو)** وهو **أحدُ الجُنود الافريقين** الأذكياء

اللُّعْبَةَ فَفَضَحَها، **وقادَ جُموعَ الثائرينَ في** غَضْبَةٍ عارِمَةٍ، حيثُ قَبَضُوا على الحكَمِ المُرسَلِ لِتَوْزيعِ الأَموالِ على الأَوْربيين، وحَطَّمُوا الصناديقَ التي تحوي تلكَ الأموالَ، وأَعلنُوا الثورةَ على قَرطاجةَ، وَوَجَّهُوا نداء إلى جميعِ البُلدانِ الافريقيةِ يَدْعُونَها فيه إلى الانضمامِ إلى الثورةِ والمُطالبةِ بالاستقلالِ، وَوَجدتْ قَرطاجةُ نفسَها أمامَ خطرٍ دَاهِمٍ في مَرحلةٍ من أَشَقِّ مراحلِ تاريخِها، إذْ كانتْ خارجةً لِتَوِّها من حَرْبٍ طويلة وهزيمةٍ أثقلتْ كاهلَها بالدُّيُونِ لِرُوما، وهي مُطالَبَةٌ بالصُّمودِ أمامَ المُرتزقين الثائرين، وثُكُناتُها خاليةٌ من السلاحِ والعَتادِ والجُنودِ، ومُستودعاتُها مُقْفِرَة من المُؤَنِ، وخزينتُها فارغةٌ منَ الأموالِ! ومع ذلكَ فلا بُدَّ من القِتالِ والتصدِّي للثائرينَ الزاحِفين، لِتُدافعَ قَرطاجةُ عن

أَرْضِها وهياكِلِها وقُصورِها و كِيانِها وحياةِ سُكّانِها وأَمْجادِها العَريقةِ، وهكذا أَعْلَنَ مجلسُ الشيوخِ في قَرْطاجةَ التجنيدَ العامَّ وعَيَّنَ (حَنُّونَ) في منصبِ القيادةِ العُليا، غيرَ أن الثائرينَ، وكان قُوّادُهم قد خَاضُوا المعاركَ في صِقِلِّيَّةَ بقيادةِ هَمَلْقار وتعلَّمُوا على يديهِ الكثيرَ من فُنونِ الحَرْبِ، تمكّنُوا من تَوْجيهِ ضَرَباتٍ قاصمةً إلى جيشِ حَنُّونَ، فازدادَ قَلَقُ مجلسِ الشُّيوخِ، وأدركُوا أنَّ **رَجُلَ الساعةِ الذي يُمكنهُ أنْ يَتَغَلَّبَ على أولئكَ الجُنود المُتَمرِّسينَ بالقتالِ هو قائدُهم القديمُ هَمَلْقارُ،** فوجَّهُوا إليهِ النِّداء، طالبينَ مَعُونَتَهُ، فلبّى هَمَلْقارُ النِداء، وخرجَ مِنْ عُزْلَتِهِ لِيَعْمَلَ على إنقاذِ الوطنِ، وتَوَلّى قِيادةَ جيشٍ جديدٍ، من عَشْرَةِ آلافِ مُقاتلٍ وسِتِّينَ فيلاً، وهو جيش صغيرٌ، ولكنَّ عبقريةَ القائدِ في خططهِ

لِلقَضاء على ثَوْرةِ المُرتزقةِ كَفلَتْ له النَّصْرَ، مُستعيناً بأميرٍ أفريقيٍّ شُجاعٍ مَعَ فُرسانِه الأَلْفَيْنِ، وقد زَوَّجَهُ فيما بعدُ واحدة من ابنتَيْهِ، ولَمْ يَتِمَّ القضاء على المرتزقةِ نهائياً إلا بعدَ أنْ أدركَتْ قَرطاجةُ أنّه لا مَنَاصَ من جَعْلِ القيادةِ العُليا لقواتِها في يدٍ واحدٍ من القائدَيْنِ: حَنُّون أو هَمَلْقار، ولمّا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَبُتَّ في اختيارِ أحدِهما دونَ الآخرِ **تَركتْ لِلجيشِ أَنْ يختارَ قَائدَه بنفسِهِ، فاختارَ هَمَلْقارَ برقة الذي وَحَّدَ قُوّاتِ قَرْطاجَةَ**، وحاصَرَ بها **جَيشَ المُرتزقةِ** الذي كان يُحاصِرُ مدينةَ قرطاجةَ، فأصبَح الثائرونَ مُحاصِرينَ ومُحاصَرينَ في آنٍ مَعاً، فانقطعتْ بذلكَ المُؤَنُ والإمْداداتُ عن الثائرينَ، في حينَ أنَّ قرطاجةَ ظلّتْ تَتَموَّنُ بما يَلْزَمُها عن طريقِ البحرِ، ولمْ يَجِدِ المُرتزقةُ الثائرونَ

بُدّاً مِنْ فَكِّ حِصارِهم والانْسِحابِ، ولمْ يَعْتَرِضْ هملْقارُ سبيلَهم، لأنّه لم يكُنْ في وَضْعٍ يُمكِّنُهُ مِن خَوْضِ معركةٍ فاصلةٍ معَهم، ولكنَّ الفُرصةَ السانحةَ لِسَحْقِ الثورةِ لَمْ تَلبَثْ أنْ واتَتْهُ بعدَ تَضْحِياتٍ كثيرةٍ، وبعدَ أن تنازَلَ حَنُّونُ عن كبريائه، وتَوَجَّهَ مع ثلاثينَ من أَعْضاء مجلسِ الشُّيوخِ إلى مَقرِّ هَمَلْقار، فاستقبلَهم القائدُ العظيمُ بالتَّرْحيبِ، وتَمَّ الاتفاقُ على تَعاوُنِ الجميعِ لانقاذِ الوَطَنِ من الخَطَرِ الجاثِمِ! ووقعت **المعركةُ الحاسمةُ** التي هَلَكَ فيها القسمُ الأكبرُ من الثائرين واستسلمَ الباقونَ دُون قَيْدٍ أو شَرْطٍ، وانتهتْ بذلكَ تلك الحربُ الداميةُ التي استمرّتْ أكثرَ من ثلاثِ سَنَواتٍ، ووصفَها المُؤرخون بأنها كانتْ أفظَع حَرْبٍ عَرَفَها التاريخُ القديمُ، لِما تَخَلَّلَها من ألوانِ البَطْشِ والعُنْفِ والضَّراوَةِ والأَهْوالِ.

— ٣ —

بعدَ القضاء على ثورةِ المُرتزقةِ **استردَّ هملقارُ برقة مكانَتَهُ الكبيرةَ في قَرطاجةَ**، مُتغلّباً بذلك على **حِزْبِ التُجّارِ** وعلى رأسِهِ حَنونُ، وأصبح الرأيُ العامُّ في جانبِ هَمِلْقار برقة، وكان قد زَوَّج ابنتَه الأُخرى إلى **أَزْروبَعْل صديقِهِ الدّاهِيَةِ**، وكان لهذا الصِّهْرِ أصدقاؤه الكثيرونَ في مجلسِ الشيوخِ بِقَرْطَاجَةَ، فاستمالَهم إلى جانِبه وجعلَهم يُؤيِّدون **مشروعَ هَمَلْقار الراميَ إلى فتحِ اسبانيةَ وإنشاءِ امبراطوريةٍ جديدةٍ فيها**، تثأرُ مِنْ روما وتنتقمُ منها، وتحولُ دونَ بَسْطِ سُلطانِها على حَوْضِ البحرِ الأبيضِ المُتوسِّطِ. والحقُّ أَنَّ والدَ هَنيبعل لم يَنْقَطِعْ يوماً عن التفكيرِ في طُرُقِ الانتقامِ من روما، وعندما أَقرَّ مجلسُ الشيوخِ القرطاجيُّ غَزْوَ اسبانيةَ

ظَنَّ حزبُ التُجّارِ أنهم بإبْعادِهم هَمَلْقار برقة عن قَرطَاجَةَ قد ارتاحُوا منهُ، وأعلنَ زعيمُهم حَنُّونُ تأييدَه لمشروعِ خَصْمِه بِقَوْلِه «لِيَذْهَبْ هملقارُ برقة إلى إسبانيةَ، فهو يُريدُ الحربَ ولا يَجِدُ سعادتَه إلا في المعاركِ، فَلْيُحارِبْ وَلْيَظَلَّ في ساحاتِ القتالِ إلى آخرِ الزمانِ، ولكنْ لِيَبْتَعِدْ عن قَرْطاجةَ وَلْيَكُنْ وحدَه مَسْؤولاً عن أعمالِه!»

وهكذا غادرَ هملقارُ برقة قَرطاجةَ عامَ ٢٣٧ ق. م على رأسِ جيشٍ صغيرٍ لفتحِ اسبانيةَ، يُرافقُه أَزْرُوبَعْل صِهْرُهُ وصديقُهُ، وقبلَ أن يَركبَ البحرَ استدعى هملقارُ ابنَه البِكْرَ **هَنيبعلَ**، وكان قد بلغَ التاسعةَ من عُمرِه، وقادَهُ إلى الهيكلِ في مَعْبَدِ أَليسارَ، سيدةِ قَرطاجةَ ومُؤَسِّسَتِها، وطلبَ منه **أن يُقْسِمَ بألاّ يكونَ في حياتِهِ كُلِّها صديقاً للرُّومانِ!** فرفع هنيبعلُ يَدَهُ وأقسمَ، بِرُوحِ أليسارَ أمِّ قَرطاجةَ،

ذلكَ القسمَ التاريخيَّ العظيمَ، في ساعةٍ حافلةٍ بالجلالِ، وارتفعَ تَرْتيلُ ابتهالٍ من أَفْواهِ الكاهِنات، وهنَّ يُؤَدِّينَ الطُّقُوسَ التقليديةَ، إلى القوى الإلهيةِ، أَنْ ترعى الأبَ القائدَ العظيمَ وغُلامَه الذي نَذَرَ نفسَه للسيرِ في الطريقِ التي خَطَّها أبوه **للثأرِ من روما.**

كانَ الجيشُ الذي صحبَ همْلقار برقة إلى اسبانيةَ لِفتحِها جيشاً صغيراً، وقد سارَ به أَوَّلَ الأمرِ إلى مَضِيْقِ **أَعْمدةِ مَلْقَرت** (جبل طارق) ثم عبرَ به البحرَ فوقَ أسطولٍ صغيرٍ إلى إحدى المُدُنِ الساحليةِ الاسبانيةِ **(قَادِشَ)** وكانتْ قَرطاجةُ تَمْتَلِكُها مع عِدَّةِ مُدُنٍ أخرى على الشاطىء الجنوبيِّ، وهناكَ نزلَ همْلقار بِحَمْلَتِهِ لِيبدأ حَرْباً طاحنةً ضِدَّ القبائلِ التي هَبَّتْ لاعْتِراضِ سبيلِ الفاتحِ القَرْطاجيِّ المُغيرِ على

أراضيها، وكان **هنيبعلُ برقة في صُحْبة أبيه، يَشْهَدُ معه المعاركَ، ويُرافقُ الجنودَ في ساحاتِ القِتالِ**، ويُوالي المُشاركةَ في الوقائعِ، والتمرُّسَ بالأعمالِ البُطوليةِ، حتى أصبحَ فارساً صُلْبَ العُودِ، يَرْهَبُ خصمُهُ جانِبَهُ، وهو ما يزالُ فتى أمْرَدَ؛ وقد تمكَّن هملْقارُ برقة من إخضاعِ القبائلِ في مَعاركَ ضاريةٍ لا رحمةَ فيها، على الرغم من ٱسْتِبْسَالِ سُكّانِ البلادِ، بِفَضْلِ عَبقريّةِ القائدِ القَرْطاجيِّ وجُرأتِهِ وبَراعتِه في تخطيطِ عملياتِه الحربيةِ، وإصرارهِ العنيدِ على تحقيقِ النصرِ لِبُلوغِ مَطامِحِه في الثأرِ من روما بعدَ ذلك، وقد استمرَّ في معارِكِه المُظَفَّرةِ مُدَّةَ ثمانيةِ أعوامٍ، وفي نهايةِ العام الثامنِ كانتْ رُقعةُ البِلادِ التي استولى عليها تمتدُّ إلى المكانِ الذي تَقَعُ فيه اليوم **مدينةُ (أَلِيكَانْت)**، وفي هذا المكانِ **بَنى**

القائدُ القَرْطاجيُّ المنتصرُ حِصْنَ (أكْرالُوكي) لِيجعلَه مَركزَ أركانِ حَرْبه، ويتخذَ منه نُقطةَ انطلاقٍ لِلفُتوحاتِ التاليةِ.

وفي هذا العامِ (٢٢٩ ق. م) عَمَدَ هملْقارُ برقة إلى تقسيمِ جُنودِ حَمْلَتِهِ إلى جَيْشَيْنِ، فَتَوَلّى هو بنفسِه قِيادةَ الجيشِ الأَوَّلِ، وعَقَدَ لِواءَ الجيشِ الثاني لِصِهْرِهِ أزْرُوبَعْل، لِيُتابعَ كلُّ جيش حملتَه وفُتوحاتِه في مِنْطَقَةٍ خاصةٍ به، وقد حُدِّدَ للجيشِ الأولِ أن ينهضَ بِفَتْحِ مدينةِ (إلْشَةَ) الواقعةِ على مَقرُبَةٍ من حِصْنِ (أكْرالُوكي)، وكان جيشُ هملقارَ برقة قد أصبحَ قوياً جداً بعد انضمام قُوّات الزعيم الاسبانيِّ (أوريسونَ) إليه، وهو رئيسُ قبائلِ الأوريتانيّين، التي تَحالفت مع القَرْطاجيين، وتطوَّعَتْ لِمُساعدتهم في القتالِ والاستيلاء على (إلْشَةَ).

كان الزعيمُ الاسبانيُّ أوريسونُ داهيةً حقاً حين استطاعَ أَنْ يَخْدَعَ القائدَ القرطاجيَّ العظيمَ ويُقنعَه بصدقِ وَلائه له، وهو **يُضْمرُ في نفسِه الغدرَ والخيانةَ.**

بدأ الزحفُ على مدينةِ إِلْشَةَ، وقُوّاتُ أوريسونَ في مُقدمةِ الجيشِ القَرطاجيِّ، ومعها مِئات من العَجَلاتِ الضخمةِ تَجرُّها الثِيرانُ، وعليها كَميّات ضخمةٌ من الخَشَبِ السّريعِ الاشتعالِ والزفتِ والقارِ والكبريتِ، وفَجأَة أَضْرَمَ الاوريتانيّونَ النارَ فيها، وانقلَبُوا على حُلَفائِهم ووجَّهوا عَجَلاتِ النارِ إلى صُفوفهم، واندفعتِ الثِّيرانُ تركُض في هَيَجانٍ جُنونيٍّ، وتَسْحَقُ القَرطاجيين الذين ذُعِروا لِهَوْلِ المُفاجأةِ، وتَضَعْضَعَ شَمْلُهم، وتَفَكَّكَ جيشُهم وقُتِلَ عددٌ كبيرٌ من جُنودِهم، ولاذَ كثيرٌ منهم بالفِرارِ،

ووقفَ هملْقار برقة في قَلْبِ النارِ، يُحاولُ تشجيعَ الجُنودِ والسيطرةَ على الفوضى والذُّعْرِ والانهيارِ، والصمودَ في وَجْهِ **الحليفِ الاسبانيِّ الخائنِ**، دُون جَدْوى، فقد **انْهارَ الجيشُ القَرْطاجيُّ**، ورأى قائدُه نفسَه مَعْزُولاً عن فُلولِه المَذْعورةِ، **ولم يَثْبُتْ إلى جانبِه غيرُ ولَدَيْهِ هَنيبعلَ وأَزْرُوبعلَ**، ونَفَرٍ صغيرٍ من الجُنودِ البواسلِ!

كان **هنيبعلُ حينذاك في السابعةَ عَشْرَةَ من عُمرهِ**، فتًى حادَّ الذكاء، يَحْتَدِمُ بَسالةً وإقْداماً، وقد تَمَرَّسَ بِفُنونِ القتالِ بإشرافِ أبيهِ في معاركِ الفتحِ في اسبانيةَ، حتى ضَمَّهُ أبوه إلى مَجْلِسِ أركانِ حَرْبِهِ، وأخذَ يَسْتَعِينُ بهِ ويتّكِلُ عليهِ في الشدائد، أَمّا أزروبعلُ فكانَ يومذاكَ طِفلاً في العاشرةِ، وقد حَضَرَ من قَرطاجةَ مُنذُ قريبٍ، إذِ ٱسْتَقْدَمَهُ أبوه منها

لِيُعلِّمَهُ أيضاً مِهْنَةَ الحَرْبِ عملياً في ساحاتِ القتالِ.

وعندما حلَّتِ الكارثةُ، نظرَ هملْقارُ برقة إلى وَلَدَيْهِ، أو **شِبْلَيْه** كما كانَ يُسَمِّيهما، وأدركَ عِظَمَ الخطرِ الرهيبِ الذي يُحيقَ بهم جميعاً، وأيقنَ أن **واجبَه الأَوَّلَ أن يعملَ على إنقاذِهما من الموتِ**، فأمرَهُما أَنْ يَتْبَعَاهُ، وأطلقَ لِجَوادِه العِنانَ، فَلَحِقا به وهُما على جَوادَيْهما، في الطريقِ السهليةِ المُمتدةِ، باتّجاهِ حِصْنِ أَكْرالُوكي، ومئات من فُرسانِ أوريسونَ يُطاردونَهم، لأنَّ زعيمَهم يُريدُ أنْ يُؤْتىٰ بالقائدِ القَرْطاجيِّ العظيمِ حَيّاً أَوْ مَيتاً، ورسَمَ هملقارُ برقة خطَّتَهُ لإنْقاذِ وَلَدَيْهِ وافتدائهما بنَفْسِهِ، فطَلَبَ منهما أَنْ يُواصِلا طَريقَهُما إلى الحِصْنِ، وأوقفَ هو جوادَه، وانتظرَ قليلاً حتى انقشَعَ الغُبارُ، وأصبحَ

مُطارِدُوهُ يَرَوْنَهُ بِوُضوحٍ ، فرَكَضَ قُدَّامَهم مُغَيِّراً طريقَه لِيُبْعِدَهم عن وَلَدَيْهِ ، وكانَ رجالُ أوريسونَ يُريدونَه وحدَهُ فَلَحِقُوا بِهِ ، وظَلَّ يَجرُّهُم وَراءه ، حتى بَلَغَ نهراً عميقاً جارِفاً ، فَاقْتَحَمَهُ بجوادِه ، وجَرَفَهُ التيّارُ إلى البَحْرِ ، حيثُ غابَ في أعماقِه إلى الأبَدِ ، ولَمْ يَعثُرْ أحَدٌ على جُثَّتِه ، وبذلكَ افتدى القائدُ القَرطاجيُّ العظيمُ كَرامتَه بِحَياتِه ، وأنقذَ ولَدَيْهِ منَ عارِ الأَسْرِ أَوِ الموتِ !

ـ ٤ ـ

بعدَ موتِ هَملقار برقة الكبيرِ عادَ الجيشُ القرطاجيُّ الثاني الذي يَقُودُه **صِهْرُه أزروبعل** إلى حِصْنِ أكرالُوكي، حيثُ أعلنَهُ الجيشُ والشعبُ **قائداً عاماً خَلَفاً للقائدِ العظيمِ الرّاحلِ**، وكان أزْروبعلُ بعدَ مُرافقتِه لهُ تِسْعَ سَنَواتٍ قد أصبحَ ذا كِفايةٍ وتَجْرِبةٍ في القِيادةِ والحُروبِ، فتولّى القيادةَ العامةَ دونَ مُنافِسٍ، **لأنَّ هنيبعلَ كانَ في الثامنةَ عَشْرَةَ من عُمرِهِ**، وهي سِنٌّ لا تَسمحُ له بأن يَحلَّ مَحَلَّ أبيهِ في تَحَمُّلِ الأعباء الكبيرةِ التي تتطلَّبُها القيادةُ العامةُ، ووافقَ مجلسُ الشيوخِ في قَرطاجةَ على تعيينِ أزروبعلَ دُون تَرَدُّدٍ، وشَمَّرَ القائدُ الجديدُ عن ساعدِ الجِدِّ للانتقامِ من الأُوريتانيينَ، فحشدَ

جَيْشاً كبيراً من مِائة ألفِ مُقاتلٍ من المُشاة، وستةِ آلافٍ من الفُرسانِ، ومائتي فيلٍ، وكانَ قد تلقّى إمدادات ونَجداتٍ من قَرطاجَةَ، ثُم شنَّ على أوريسون هُجوماً صاعِقاً، وقتلَ جميعَ الذين اعتبَرهم مَسْؤولين عن مَوْت هَمَلْقار، وبالغَ في القسوةِ على الغادرينَ والخَوَنةِ، ولكنه عامَلَ القبائلَ الأُخرى باللّينِ والسِّياسةِ، واستطاعَ بدهائه أن يَبْسُطَ نُفوذَ قَرطاجةَ بالسِّلْمِ والتحالُفِ مع رُؤَساء القَبائلِ أكثرَ مِمّا بَسطَهُ بانتصاراتِه الحربيةِ، وبعد وفاةِ زَوْجتِه ــ ابنةِ هَمَلْقار ــ تَزَوَّجَ من ابنةِ رئيسٍ لإحدى القبائلِ الاسبانيةِ، ممّا أَكسَبَهُ شَعْبيّةً، وجعَلَهُ في نَظَرِ الاسبانِ بَطَلاً قومياً، وليس فاتحاً أجنبياً، **ومن أهمِّ أعمالِ أَزروبعلَ إنشاؤه مدينةَ قَرْطاجَنَّة** ــ أي قَرطاجة الصغيرة ــ على الساحلِ الاسبانيِّ،

فجاءتْ بِضخامةِ أَسْوارِها ومتَانَتِها، ورَوْعَةِ هياكِلِها وقُصورِها وشوارِعها وحدائقها الغَنّاء، مُشابهةً لأُمِّها قَرْطَاجَةَ، وكانَ أزروبعلُ يُعدُّها **لِتكونَ قاعدةً عسكريةَ لِلقُوّات** البريةِ والبحريةِ التي ستنطَلِقُ منها يوماً **لِلثّأرِ من روما** وسَحْقِها، ذلك الحُلمِ الأكبر الذي خَلَّفه هملقارُ برقة لِصِهْرِه وأولادِه من بعدِه، ولكنَّ روما انتبهتْ إلى قِيامِ دولةٍ فَتيّةٍ في اسبانيةَ، دولةٍ كثيرةِ الموارِدِ، مُنصرفةٍ إلى صُنْعِ آلةِ حربٍ جبّارةٍ، ولولا قَلَقُ الرومانيين من هُجومٍ غُوليٍّ على أراضيهم لَبادَرُوا إلى القضاء على الوُجودِ القرطاجيِّ في اسبانيةَ، ولَمّا لم يَشَاءوا أن يُحارِبوا عَدُوَّيْنِ في آن معاً، قرروا التفاهمَ مع القرطاجيين، وأرسلوا وَفْداً إلى أَزْروبعلَ لِلتفاوُضِ، وانتهى الأمرُ عامَ ٢٢٦ ق. م بعقدِ **مُعاهدةِ الايبر** التي تَنُصُّ على

إطْلاقِ يدِ القَرْطاجيينَ وراء نَهْر الإيبر، على ألاَّ يتجاوزوا هذا النهرَ صَوْبَ أوربةَ، فكانتْ هذه المعاهدةُ اعترافاً من روما بِسَيْطَرَةِ أزروبعلَ على ثُلُثَيْ اسبانيةَ.

وبعدَ إبْرامِ المُعاهدةِ بسنواتٍ قليلةٍ **قُتِلَ أزروبعلُ اغتيالاً** في خيمتِه عامَ ٢٢١ ق. م، في ظروفٍ غامضةٍ، وليسَ من المُستبعدِ أن تكونَ لِروما يدٌ في اغتيالِه، وقيلَ أيضاً إنَّ قاتلَه قد يكونُ واحِداً من رِجالِ أوريسون، وبمصرعِ أَزْروبعلَ أصبحتِ الأكثريةُ في مجلسِ الشيوخِ بقَرطاجَةَ تميلُ إلى المُسالمةِ وتُؤَيِّدُ حِزْبَ التجّارِ، وزعيمِهِ حَنّونَ، وهم أنصارُ التفاهمِ السلميِّ لِتأمينِ مصالِحهم الاقتصاديةِ، وقد قالوا: إنَّ قَرطاجَةَ لم تَعُدْ بحاجةٍ إلى فاتحٍ من رجال الحَرْبِ في اسبانيةَ، بل هي اليومَ

بحاجةٍ إلى رَجُلٍ إداريٍّ حكيمٍ يَحرَصُ على السلمِ، ويحافظُ على العَلاقاتِ الطيّبةِ مع روما! غيرَ أنَّ **رجالَ الجيشِ القرطاجيِّ في اسبانيةَ**، وهم الذين ربّاهم هملقارُ برقة وأَخْلَصُوا له ولِصِهْرِه من بَعْدِهِ، أَدْركوا أبعادَ المُؤامرةِ التي يُدَبِّرُها حِزْبُ التجّارِ، وهم الذين كانوا يَحلمونَ باليومِ العظيمِ الذي يَتمّ لهم فيه الثأرُ من روما، فأجمعوا أمرَهم على وَضْعِ قَرْطاجةَ أمامَ الأمرِ الواقعِ، **واختاروا هنيبعلَ برقة ابن هَمَلْقار قائداً عاماً لهم**، وهو شابٌّ في السابعةِ والعشرينَ من عُمرِهِ، فبدأ بذلك مَرحلةً جديدة من حياتِه.

الباب الثالث

القائدُ القرطاجيُّ الشابُّ
يَسْتَعِدُّ لِلحملةِ الكُبرى

۲۲۱-۲۱۹ ق. م

— ١ —

وجدتْ حكومةُ قَرطاجةَ نفسَها أمامَ الأمرِ الواقعِ في اسبانيةَ، فاضطرَّتْ إلى **المُوافقةِ على تَعْيينِ هَنيبعلَ برقة قائداً عاماً** لقُواتها هناكَ، وبَدأَ القائدُ الشابُّ مهمَّتَه بحملةٍ مُظفَّرةٍ على مَناطقِ القبائلِ التي لم يَتِمَّ إخضاعُها لِلحُكم القرطاجيِّ، وهيَ مناطقُ تقعُ جنوبيَّ نهر الإيبر، ولِقَرطاجة الحقُّ في إخْضاعِها حَسْبَ مُعاهدتِها مع روما، وهيَ من أَغْنى المَناطقِ الاسبانيةِ بِمَعْدنِ الفِضَّةِ، فاستولى هَنيبعلُ على ما فيها، واستسلمتْ له المُدُنُ المجاورةُ دونَ قتالٍ، وعادَ إلى قَرْطاجَنَّةَ من حَمْلَتِه بكميات كبيرةٍ من الغنائمِ والأموالِ، **تُرافِقُه زوجةٌ شابةٌ حسناء**

هيَ ابنةُ الملكِ الاسبانيِّ **قسْطلون**، وانصرفَ إثْرَ عودتِه إلى تنظيمِ شُؤونِ الدولةِ وتَدْعيمِ الجيشِ، فأغْرَقَ الجُندَ بالعَطايا والمُكافآتِ، لِيَكْسَبَ قلوبَهم ويجعلَهم يزدادونَ تَعَلُّقاً بهِ وإخْلاصاً له، وكانَ مجلسُ أركانِ حَرْبِهِ يَمْلِكُ صَلاحِيّاتٍ واسعةً تُخَوِّلُهُ حَقَّ إنْشاء جَيْشٍ دائمٍ، لهُ مواردُهُ المُستَقِلَّةُ عن مَوارِدِ الحُكومةِ وعَنْ مُراقبةِ قَرْطَاجَةَ، وقد نَمَتْ تلكَ المواردُ وازدهرتْ على يدِ هَملْقارَ وصهره أَزْروبعلَ من بعدِه، **وأصبحتْ قَرطاجَنَّةُ بها قادرة على إعانةِ قَرْطَاجَةَ نفسِها في أوقاتِ الأَزماتِ الاقتصاديةِ.**

بعدَ أنْ أقامَ هنيبعلُ في قَرطاجَنَّةَ بِضْعَةَ أشهُرٍ، قامَ بحملةٍ ثانيةٍ لافتتاحِ المُدنِ الاسبانيةِ التي لم يَتمَّ إخضاعُها لِلحُكم القرطاجيِّ، فاستولى على مدينة سَلَمَنْقَةَ، وأَرَبوقَلَةَ، وفي طريقِ

عَوْدتِه إلى قَرْطاجَنَّةَ مُثْقَلاً بالغنائم، اصطَدَمَ بجيشٍ اسبانيٍّ عندَ المِنْطَقَةِ العُليا من نهرِ التّاجِ، وهَزَمَهُ هزيمةً ساحقةً رغمَ تَفَوُّقِ الاسبانِ العَدَدِيِّ، وتابعَ طَريقَه إلى قَرطاجنّةَ، ولم يبقَ في جميعِ البُلدانِ الاسبانيةِ الواقعةِ جَنوبيَّ نهرِ الإيبر مَنْ يستطيعُ مُقاومةَ الجيشِ القرطاجيِّ، بآسْتِثْناء مدينةِ (**ساغُونتَ**) التي تقعُ في مُنتصفِ الطريقِ بينَ نهرِ الإيبر وقَرطاجنَّةَ، وكانَ سُكانُها قد عَقَدوا مع روما عهداً وجعلوا مدينتَهم حليفةً للرومان، غير أنَّ **مُعاهدةَ الإيبر، وقد أَلْغَتْ ما قَبلَها، تُعْطي لِقَرْطاجَةَ الحقَّ في إخْضَاعِ مدينةِ ساغُونتَ لها،** وكانَ في هذهِ المدينةِ حزبٌ كبيرٌ يدعو إلى التحالُفِ مع قَرْطَاجَةَ، وقامتْ بينَهُ وبينَ أنصارِ روما في المدينةِ فِتْنَةٌ داميةٌ خلالَ عامَيْ ٢٢٣-٢٢٢ ق. م،

فاستنجدَ هؤلاء بروما، فأرسلتْ إليهم قوة مُسَلَّحةً استعانوا بها على قَادةِ حزبِ قَرطاجةَ، وقبَضُوا عليهم جميعاً وأعْدَمُوهم، وطرَدُوا أتباعَهم من المدينةِ، **فأصبَحَتْ ساغُونتُ مركزاً للنفوذِ الرومانيِّ في قَلْبِ اسبانيةَ القَرْطاجِيَّةِ،** وأضحتْ خَطراً على هنيبعلَ، ففي استطاعةِ الرومانِ أن يُهدِّدُوهُ في كلِّ حينٍ بإنزالِ قُواتِهم في مَرْفَأ سَاغُونتَ المُحالفةِ لهم وكان الأسطولُ الرُّومانيُّ قد أصبحَ أقوى بكثيرٍ من أسطولِ قَرطاجَةَ، **فاضطُرَّ هنيبعلُ إلى آحْتلالِ المدينةِ،** لِيَتَفادى بذلكَ خطَرَ وُجودِ جيشٍ رُومانيٍّ في مُؤَخَّرَتِه.

كانتِ الجيوشُ الرومانيةُ مشغولةً بالحَربِ في اليُونانِ فأرادتْ أنْ تُوفِّرَ على نفسِها فَتْحَ جبهةٍ أخرى في اسبانيةَ، فَلَجأَتْ إلى إرسالِ مَنْدُوبيها إلى

قَرْطاجَةَ، لِلتهديدِ بالحربِ، ولكنَّ هنيبعلَ قَدَّرَ بذَكائِهِ أَنَّ روما أعجزُ من أَنْ تَنْتَقِلَ مِن التهديدِ إلى العملِ، فزحفَ على ساغُونتَ وضرَبَ عليها الحِصارَ في ربيعِ عامِ ٢١٩ ق. م، ولكنَّ سُكانَها قاوَمُوه مُقاومةً عنيفةً، بانتظارِ مُساعدةِ روما لهم، واستمرَّ الحِصارُ ثمانيةَ أشهُرٍ، كانَ هنيبعلُ خلالَها قد **تركَ لأَحَدِ ضُبّاطه (ماهربَعْلَ) قيادةَ الحِصارِ**، وغابَ على رأسِ قطعةٍ من الجيشِ **للقيامِ بحملةٍ تَأديبيّةٍ في مِنْطَقَةِ تُوليدو** (طُلَيْطِلَةَ)، فلما عادَ منها كانت المدينةُ المُحاصَرةُ على وَشْكِ الاستسلامِ، **فَدَخَلَها هنيبعلُ مُنْتَصِراً**، واستولى على غنائمَ وفيرةٍ وكميّاتٍ كبيرةٍ من الذهبِ والفِضَّةِ والأمتعةِ والرياشِ، فأرسلَ قسماً منها إلى قَرْطَاجَةَ التي ٱبْتَهَجَتْ بانتصارِ قائدِها البطلِ، وأقامتْ له معالمَ

الزِّينَةِ والفَرَحِ، وعلا نجمُ هَنيبعلَ فيها، وأصبحَ اسمُه على كُلِّ لسانٍ!

أما رُوما فقد كانتِ الضربةُ التي تَلَقَّتْها شديدةَ القَسْوةِ عليها، ذلكَ أن سُقوطَ المدينةِ الحليفةِ لها دُونَ أن تُسْرِعَ إلى حِمايتِها وعَوْنِها قد أَفْقَدَها ثِقةَ الشُّعوبِ بِعُهودِها، وعَقَدَ مجلسُ الشيوخِ الرومانيُّ جَلْسَةً صاخِبَةً، وبعدَ مُناقشاتٍ طويلةٍ تَمَّ الاتفاقُ على إرسالِ وَفْدٍ إلى **قَرْطَاجَةَ** لِسُؤالِها: **هل هيَ مُوافقةٌ على أَعمالِ هَنيبعلَ** أمْ أنها تَستنكرُها، فإنْ تكُنْ مُوافِقةً فالحربُ أمامَها، **وإلاّ فعَلَيْها أَنْ تُسَلِّمَ قائدَها الشابَّ إلى روما أَسيراً** مُقيّداً بالسَلاسلِ، وأنْ تَجْلُوَ قُوّاتُها عن ساغُونتَ لِتَعُودَ الحاميةُ الرومانيةُ إلى ٱحْتلالِ مَرْفَئِها!

وأبحرَ الوفدُ الرُّومانيُّ في آذار ٢١٨ ق. م إلى

قَرْطَاجة، وحضرَ جلسةَ مجلسِ شُيوخِها المُنعقدةَ لِذلكَ، واستمعَ الشيوخُ إلى إنْذارِ رُوما وشُروطِها، والحقُّ أَنَّ عَجْرَفَةَ المَبْعُوثينَ الرومانيين جعلَ تهديدَهم أَمْراً مُثيراً، فشُروطُ **روما تَتطلَّبُ أنْ تتنازَلَ قَرْطَاجةُ عن استقلالِها وكرامَتِها، وأن تخسر مُمْتَلَكاتِها في اسبانيةَ**، ولو قبلَ مجلسُ الشيوخِ ذلكَ لَثارَ عليهِ جَيْشُ قرطاجةَ المُعْتَزُّ بِقُوَّتِهِ وعبقريَّةِ قائدِهِ وطُموحِهِ إلى مُوالاةِ الفُتوحاتِ وتَحقيقِ الانتصاراتِ!

لهذا ارتجفَ الشُّيوخُ القرطاجيُّونَ منَ الغَضَبِ، وأجابُوا الوفدَ الرومانيَّ عندما قالَ رئيسُهم: **«جئتُكم بالسِّلْمِ أو بالحَرْبِ، فاختارُوا ما تُريدونَ»** أجابُوه بهدوء وغَيْظٍ مكظُومٍ: «اخْتَرْ أنتَ ما تشاء!»

فطرحَ رئيسُ الوفدِ الرومانيِّ عندَ ذلك عنهُ رِداءه الأبيضَ، رمزَ السّلامِ، ووضعَ يَدَهُ على سَيْفِهِ وصاحَ:

ـ «هذا هُو رَدُّ روما، الحربُ!»

وردَّ عليهِ الشيوخُ غاضِبين: «إننا إذاً نقبَلُها!»

وهكذا **بَدَأَتِ الحربُ الثانيةُ بينَ قَرْطَاجَةَ وروما**، وأخذَ هَنيبعلُ يَسْتَعِدُّ للقيامِ بحملةِ الثأرِ الكُبْرى التي كانت حُلْمَ أبيهِ مِنْ قَبْلِهِ.

ـ ٢ ـ

كان **الوفدُ الرُّومانيُّ** بعدَ مُغادرتِهِ قَرْطَاجةَ قد **تَوَجَّهَ إلى اسبانيةَ** لِدَعْوةِ قبائلِها إلى الثورةِ على القَرطاجيِّينَ والانضواء تحتَ لواء روما لِحمايتهم، ولكنَّ أكثرَ القبائلِ سَخِرَتْ من دَعْوَةِ الوَفْدِ، وأشارتْ إلى إهْمالِ رُوما لِحُلَفائها عندَ الخَطَرِ، وما حلَّ بمدينةِ ساغُونتَ أكبرُ دليلٍ على ذلكَ؛ وتابعَ الوفدُ طَوافَهُ في اسبانيةَ دُونَ جَدْوى، ثم انتقلَ إلى **بلادِ الغُولِيِّين** لِيَطْلُبُوا منهم التصدِّيَ لِهنيبعلَ ومَنْعَهُ منَ المُرورِ في أراضيهم إذا حاولَ أنْ يجتازَها لِيَغْزُوَ إيطاليةَ، ولكنَّ الوفدَ لم يَلْقَ من الغُوليينَ **غيرَ السُخْريةِ والاخفاقِ** وصَيْحاتِ الاستنكارِ،

باستثناء **المَرْسِلِيِّينَ** الذين كانوا حُلفاء لِرُوما وأصدقاءً لها.

وتلقّى هَنيبعلُ أنباء إخفاقِ الوَفْدِ الرُّومانيِّ في مُهمتِه في الأَقْطارِ الإسبانيةِ والغُوليَّةِ، وكانَ القائدُ المُنتصرُ قد عادَ من سَاغُونْتَ إلى قَرْطاجَنَّةَ لِيَقْضِيَ فصلَ الشتاء، ويَستعدَّ لِخَوْضِ الحربِ التي كان عليهِ أن يُواجِهَها في مَطْلَعِ الربيعِ.

لقد **حانتِ الساعةُ التي كان القائدُ العبقريُّ ينتظرُها** لِيُبرهنَ علَى مَواهِبِهِ الكبيرةِ في فَنِّ الحربِ والاستعدادِ للقتالِ، وها هو ذا الآنَ ينصرفُ بكُلِّ هِمَّةٍ ونَشاطٍ إلى **تَهْيئةِ حَمْلَتِهِ الكُبْرى للانقضاضِ على رُوما** وسَحْقِها والثأرِ منها، ولَنا أنْ نَشْهَدَ في كُلِّ جانبٍ من جَوانبِ استعداداتِه لِلْحَمْلَةِ القادمةِ **براعةَ هذا القائدِ المُبرِّزِ المَوْهوبِ** وبوادرَ عَبقريتهِ

الكامنةِ في ٱبْتِكارِ الوسائلِ والخِطَطِ والتحضيرِ لها، بعزيمةٍ وجُرأةٍ ونشاط لا يَعْرِفُ الكَلَلَ، وهِمَّةٍ وإقدامٍ وإصْرارٍ على التَغَلُّبِ على جميعِ العَقَباتِ، لِبُلوغِ الهَدَفِ المَنْشُودِ.

بدأَ هَنيبَعْلُ تحضيرَه للحملةِ بإعْطاء جُنودِهِ الاسبانيِّينَ الأَشِدَّاء إجازاتٍ طويلةً ليَقْضُوا فصلَ الشتاء في بُيوتِهم، مع أَهْلِيهم، لِيَزْدادوا تَعلُّقاً بهِ وتَفَانياً في سَبيله.

ثم أرسلَ وَفْداً إلى قَرْطاجَة لِلتَّفاهُمِ معَ مجلسِ الشُّيوخِ على تبادُلِ الجُيُوشِ، وهي خطَّةٌ ابتكَرَها هنيبعلُ، وتَقْضي بإرسالِ الجُنودِ الأوربيينَ لِلدِّفاعِ عن افريقيّةَ، وباستِقْدامِ الافريقيينَ لِلقتالِ في أوربةَ، وذلكَ تَجَنُّباً لِلْفِتَنِ والثَّوْراتِ، بإبْعادِ الجُنديِّ عن مَوْطِنِهِ، لِكَيْلا يَتَأَثَّرَ بما قد

يَنْشبُ بينَ مُواطِنيهِ من ثَوْرةٍ أو عِصْيانٍ على القَرْطاجِيِّينَ، ولأنَّ الجُنديَّ إذا كانَ بعيداً عن بلادِه يَظَلُّ أكثر انضِباطاً وتَقَيُّداً بالنِّظامِ، وأَشَدَّ ارتباطاً بالجيش الذي يَحِلُّ في نفسِه مَحَلَّ أسرتِهِ وَقوْمِهِ البَعيدينَ، وهُنا يَبْرُزُ هَدَف كبيرٌ منْ أهدافِ هنيبعلَ في استعداداتِه الحربيةِ: فهو يُريدُ **أنْ يَجْعَلَ مِنَ المُرتزقةِ رِجالاً لا يُحاربونَ بأجسادِهم فَقَطْ، بلْ بأَرواحِهم أيضاً**، إذ يَخوضونَ المعاركَ، بإيمانٍ وعقيدةٍ وثِقَةٍ بأنهم يُحاربونَ **من أَجْلِ انتصارِ قضِيَّةٍ عادلةٍ**، وهذا هو السرُّ الكبيرُ وراء القُوّةِ القاهرةِ التي امتازَتْ بها جُيوشُ هَنيبعلَ، إذ تمكنتْ عَبقريةُ هذا القائدِ القرطاجيِّ العظيمِ مِنْ **أَنْ تَصْنَعَ من تلكَ الجُيوشِ المُؤلَفةِ من مُرْتزقةِ شُعوبٍ مُختلفةٍ جَيْشاً واحداً مُتَماسِكاً**، وأنْ تَخْلُقَ في

صَميمِ كُلِّ فردٍ من أفرادِه نَفْسِيَّةً تَضامُنِيّةً وشُعوراً عَميقاً بالواجِبِ العَسْكَرِيِّ، وأَنْ تَجعلَهم يَسْتَهينُونَ كُلِ التضحياتِ وراء قائدِهم العبقريِّ، لِتَحْقيقِ لبُطولاتِ، وَسَحْق جُيوشِ رُوما، وهي جُيوش وْمِيَّةٌ تُدافِعُ باستماتةٍ عن كَرامةِ أُمَّتِها وأرضِها وَطَنِها!

إنَّ اهتمامَ هَنيبعلَ بهذِهِ النَّواحي المَعْنَوِيَّةِ **لاسْتِغْلالِ طاقاتِ المُقاتِلِ الرُّوحيَّةِ، إلى جَانِبِ طاقاتِه البَدَنِيَّةِ**، من أعظمِ مَزايا القائدِ الأكبرِ الحَريصِ على تَقْوِيَةِ الإرادَةِ في رِجالِهِ، وتَفْجيرِ إمْكاناتِ البَسالةِ والجُرأةِ والإقدامِ في نُفوسِهم.

وَصَرَفَ هَنيبعلُ جانِباً كبيراً من اهتمامِهِ وٱسْتعداداتِه لِلْحَملةِ بإرسالِهِ المَبْعوثِينَ إلى رُؤساءِ القَبائلِ الغُولِيَّةِ، لِجَمْعِ المَعْلُوماتِ عن الطُرُقِ

المُؤَدِّيَةِ إلى إيطاليةَ، مَرْحَلَةً مرحلةً، ولاسْتِكْشافِ ما يُمكنُ استكشافُه عن العدوِّ وإمكاناتِه وخِطَطِه ومواقعِ أَرْضِهِ ومَدى استعداداتِه، وهذه ناحيةٌ أُخْرى من عبقريةِ هنيبعلَ، إذْ أَنْشَأَ **بذلكَ ما يُسمّى اليومَ بالاستخباراتِ أو (المكتب الثاني) لِتَزويدِ القيادةِ بأَسْرارِ العَدُوِّ**، وهكذا نعلمُ أنَّ القائدَ القرطاجيَّ الأكبرَ لم يَرْتَجِلْ حَمْلَتَه الكُبرى ارتجالاً، ولم يُقْدِمْ على اجتيازِ **جبالِ البيرنه، وبلادِ الغُول، ووادي نهرِ الرُّون ثم جبالِ الألب**، مُعرِّضا جَيْشَهُ لأَخْطارٍ كبيرةٍ، دُونَ دراسةٍ دَقيقةٍ، واتّخاذِ التدابيرِ الكفيلةِ بنجاحِ خِطَّتِه!

ويؤكدُ الباحثون أن والدَ هَنيبعْلَ، هَمَلْقار برقة، كانَ يُمهِّدُ لِلقيامِ بمثلِ هذهِ الحملةِ، حينَ عَمَدَ إلى إنشاء جَالياتٍ قَرْطاجيةٍ سِرِّيَّةٍ في بلادِ الغُولِ، وفي

قلبِ إيطاليةَ، لِتكونَ عندَ الحاجةِ بمثابةِ (طابور خامسٍ) لِلْجيشِ الزّاحِفِ، وقد تابعَ هَنيبعلُ خِطّةَ أبيه، وزادَ عليها باتّصالِهِ برُؤساء القبائلِ الغُوليّةِ وتقديمِ الهدايا السخيةِ إليهم، لِكَسْبِ قُلوبهم، ولِتَحْريضِهم على روما، والحق أنَّ **القبائلَ الغُوليةَ القاطنةَ في جوارِ جبالِ الألْبِ من الناحيَةِ الايطاليةِ كانتْ تُضْمِرُ أشدَّ البُغضِ لروما**، وهو بُغْض عميق موروث أَذْكَتْ نِيرانَه الحروبُ الدائمةُ بين روما وتلكَ القبائلِ، وكانتْ خِطّةُ هَنيبعلَ تَقُومُ علىَ إثارةِ الشُّعُوبِ الغُوليةِ والإيطاليةِ على روما، وتأليفِ قُوّاتٍ مُحاربةٍ من تلكَ الشُّعوبِ، تَنْضَمُّ إلى الحملةِ القَرْطاجيَّةِ، لِسَحْقِ روما والقضاء عليها.

وهكذا أَتَمَّ هنيبعلُ **تحضيرَه لحملةِ الثأرِ الكُبرى**، وقد كانَ أمامَه لِلوصولِ من اسبانيةَ إلى

روما طريقان: **الأولى قصيرة وسهلةٌ**، وهي التي تمتدُّ على شواطىء البحرِ الأبيضِ المتوسطِ، **والثانيةُ خَطِرَة وصَعْبَةٌ لأنها تَمرُّ بسلسلتينِ من الجبالِ الوَعْرةِ هما البيرَنة والألب**، وبالمناطِق الغُوليّةِ وقبائلِها الباسلةِ، وبِوادي نَهْرِ الرُّونِ، وقبلَ الوُصولِ إلى السُّهـول المُؤدِّيَـةِ إلى روما لا بُدَّ من اجتيازِ **جبالِ الأبنينِ ومُنحَدَراتِها الخَطِرَةِ**، ومعَ ذلكَ فقد **اختارَ هنيبعلُ هذه الطريقَ الطويلةَ الخطِرَةَ**، لِيُتاحَ له أنْ يُثيرَ القَبائلَ الغُوليةَ والايطاليةَ على رُوما في طريقِه إليها **أولاً**، ولِيَتَجَنَّبَ التعرُّضَ لِهُجومِ القبائلِ الخاضِعةِ لِنُفوذِ مَرْسيليةَ حليفةِ الرومان في الطريقِ البحريةِ الأولى **ثانياً**، ولِيُنازلَ الجُيوشَ الرومانيةَ في السُّهولِ الفسيحةِ التي يَستطيعُ فيها أن يَقُومَ بعملياتٍ عسكريةٍ واسعةٍ **ثالثاً**، ولِيستوليَ على

المناطقِ الخِصْبَةِ التي تُغَذِّي جَيْشَهُ بِمَوارِدِها وخَيْراتِها الوفيرةِ، حتى ولَوْ انقطعَ عنه المَدَدُ من اسبانيةَ رابعاً! وبذلكَ بدأ القائدُ العبقريُّ **مُغامرتَه الكُبرىٰ وهو دونَ الثلاثينَ مِن عُمْرِهِ.**

الباب الرابع

هنيبعلُ فاتحُ أوربةَ

في حَمْلَتِهِ الكُبرى

٢١٩-٢٠٤ ق. م

— ١ —

أما **الرُّومانُ** فقد بَنَوْا خِطَّتَهم الحربيةَ لِمُواجهةِ حمْلَةِ هَنيبعلَ على تَقْديرات خاطِئةٍ: **فهم كانُوا واثقينَ بأنَّ القائدَ القَرْطاجيَّ سيزحفُ إلى إيطاليةَ من الطّريقِ البَحْريَّةِ**، بعد أنْ يتركَ قِسْماً من قُوّاتِه في اسبانيةَ لِلطّوارىء، أمّا الجيشُ الزاحفُ فَسيصْطَدِمُ بالقبائلِ التي تُثيرها مَرسيليةُ فلا يصِلُ إلى وادي نَهرِ الرُّونِ إلا وهو مُرْهَق خَائرُ القُوى، فَتَتَصدّى له حِينذاك الجيوشُ الرومانيةُ وتَسْحَقُهُ وتُطاردُ فُلولَه إلى جبالِ البيرَنة، حيثُ تنقلبُ القبائلُ الغُوليةُ على القائدِ القَرْطَاجيِّ المهزومِ، وتَنْضَوي تحتَ لِواء الجيشِ الرومانيِّ المُنتَصِرِ، لِلزَّحْفِ على

اسبانيةَ وتَحْريرِها من القُوّاتِ القَرْطاجيةِ، قبلَ الانتقالِ إلى افريقيةَ لِمُنازَلَةِ قَرْطاجَةَ وَسَحْقِها وإزالَتِها من الوَجودِ. وكانتْ **خِطَّةُ الرومانِ تَقْضي كَذلكَ بِفَتْحِ جبهةٍ ثانيةٍ في افريقيةَ لِحِصارِ قَرْطاجَةَ والضَّغْطِ عليها** لِتُذْعِنَ لإرادةِ روما، ولِتَنْهَبَ الجيوشُ الرومانيةُ المُدنَ القَرْطاجيَّةَ الصغيرةَ التي لا تَحْمِيها الحصونُ والأَبْراجُ: وكانتْ روما تَعتقدُ أنَّ غَزْوَها لإفريقية سَيُرغمُ هنيبعلَ على التراجُع عنِ الأراضي الايطاليةِ!

ولكنَّ تقديراتِ الرومانِ لم تكُنْ في مَحَلِّها: فهنيبعلُ الذي قطَع المسافةَ بين نَهرِ الإيبرِ وجبالِ البيرنه في ثلاثةِ أشْهُرٍ، وقضى على المُقاومةِ التي تَصَدَّتْ له واعترضَتْ سبيلَه خِلالَ ذلك، لم يَلْبَثْ أَنِ اجْتَازَ بِقُوّاتِهِ الضخمةِ جبالَ البِيرنة، وتمكَّنَ من

عَقْدِ صِلاتِ الصداقةِ معَ القبائلِ الغُوليّةِ فَعَبَر أَراضِيَها وبلغَ واديَ الرُّونِ في مُدَّةِ أربعةِ أيّامٍ، ثم اجْتَازَ نهرَ الرُّونِ بَعدَ قَهْرِ القبائلِ الغُوليّةِ التي كانتْ تُقيمُ على ضِفَّتَيْ النَّهْرِ، وهي من حُلَفاء روما، وأَصبحتْ طريق جبالِ الأَلْبِ مَفْتُوحةً أمامَه!

وعندما رأى هَنيبعلُ تَهَيُّبَ جَنودِه من اجتيازِ تلكَ الجبالِ الشاهقةِ خَطَبَ فيهم لِيُصوِّرَ لهم عَظَمَةَ العَملِ الذي يَقُومونَ به، وعِظَمَ الفوائدِ التي سَيَجْنُونَها عندما تَسْقُطُ روما تحتَ ضَرَباتِهم الساحقةِ، وخَتَمَ خُطبتَه بقولِه: «ما هيَ جبالُ الألبِ؟ إنها جبالٌ عاليةٌ، لا شي غيرَ هذا! يكْفِي أن تَتَصَوَّروا أنها أعلى من البيرنة، وأَنْ لَيسَ في العالم أرض تُلامِسُ السَّماء حتى يكونَ اجتيازُها مُتَعذِّراً على البَشَر!»

وتحمَّسَ الجُنْدُ وهَتَفوا لقائدِهم العظيمِ، وتابَعُوا زحفَهم صَوْبَ الشّمالِ، إلى بلادِ القَبائلِ الأَلُوبروجيَّةِ، قبلَ أنْ يتمكَّنَ الجيشُ الرومانيُّ الذي حَمَلَتْه السُّفُنُ إلى ميناء مَرْسيليةَ منَ اللَّحاقِ بالقَرْطاجيّينَ، فعادَ أَدْراجَهُ إلى سُفَنِهِ، لِيَعُودَ إلى إيطاليةَ قَبْلَ وُصولِ هَنيبَعْلَ إليها.

ورجالُ الحَرْبِ إلى اليومِ **يَعُدُّونَ اجتيازَ هَنيبعلَ بجُيوشِهِ ومُعِدّاتِه وفِيَلَتِهِ جبالَ الألبِ ومَمَرّاتِها الشاهقةَ الخطِرةَ منَ المُعجزاتِ**، والحقُّ أنَّ القائدَ القَرطاجيَّ استطاعَ أن يُذَلِّلَ أمامَ جَيْشِهِ الزاحفِ جميعَ العَقَباتِ: منَ العَواصِفِ الثَّلْجيَّةِ الهائلةِ، إلى انهيارِ الكُتَلِ الجَليديّةِ على الجُنودِ، إلى غَارَاتِ القَبائلِ المُتَوَحِّشَةِ، إلى التَعَرُّضِ لِلسُّقُوطِ في المَهاوي عندَ السَّيْرِ على السُّفُوحِ الشديدةِ الانحدارِ،

وقد كانَ هنيبعلُ يَقُودُ جيشاً جرّاراً يَجُرُّ معَهُ أَحْمالاً ثَقِيلَةً منَ الأَسْلِحَةِ والذَّخائرِ والمُؤَنِ، وكانَ **يَسُوقُ عَشَراتٍ من الفِيَلَةِ، يَدْفَعُها دَفْعاً إلى ٱجْتيازِ القِمَمِ**، ومِنَ المُؤَكَّدِ أنَّ القائدَ القرطاجيَّ العبقريَّ قد فَقَدَ عَدَداً كبيراً من جُنودِهِ في اجْتيازِهِ جبالَ الأَلْبِ، ولكنَّ وُصولَهُ رغمَ كُلِّ ذلكَ، بعدَ الانحدارِ الصَّعْبِ، إلى السُّهولِ الايطاليةِ، على رأس جَيْشِهِ النِّظَاميِّ، هو في حدِّ ذاتِهِ **مُعجزة تاريخيَّةٌ خارِقةٌ** تَشْهَدُ بعَزْمِ هنيبعلَ وحَزْمِهِ وتَصْميمِه وقُوَّةِ إيمانِه، وعندَما أَطَلَّ الجيشُ الزّاحِفُ أخيراً على السُّهولِ الايطاليةِ المُمْتدةِ إلى أقصى الأُفُقِ أشارَ هَنيبعلُ إليها وقالَ لِجُنْدِه:

«انظُروا إلى هناكَ! أيُّها الجنودُ أنتمْ هُنا جائِعونَ خائِرو القوى، ولكنكم هُناكَ ستدخُلُونَ

مُدناً عامرة تَغُصُّ بالكُنوزِ والتُّحَفِ وأصنافِ الطعامِ والشرابِ! إنكم هنا تَفْتَرِشُونَ التُّرابَ وتَتَوَسَّدُونَ الحِجارةَ والصُّخُورَ، بينما تنتظركم هناك الأَسِرَّةُ الدافِئةُ! كلُّ هذا يَنْتَظِرُكم، وكلُّ هذا سيكونُ لكم، **وهذه الطريقُ مفتوحةٌ أمامَكم إنْ كُنتُم أَبطالاً!»**

وفي اليومِ التالي بدأ الجُنودُ يَهْبِطُونَ المُنْحَدراتِ، وقدْ خَسِرَ هنيبعلُ في تلك المَهاوِي عَدَداً كبيراً من جُنودِهِ أيضاً، وعندما وَصَلَ جَيْشُهُ إلى أوَّلِ وَادٍ إيطاليٍّ كانَ **عددُه لا يَزيدُ عن سِتّةٍ وعِشْرينَ ألفَ مُقاتلٍ**، وقد أمضى **نصفَ شَهْرٍ في اجتيازِ جبالِ الأَلْبِ!**

ويُعَلِّقُ واحدٌ من المُؤَرِّخينَ على ذلكَ بِقَوْلِه: **«لقدْ تَحقَّقَ المُستحيلُ يومَ اجتازَ هَنيبعلُ جِبالَ**

الألبِ!» غيرَ أنَّ تحقيقَ المُستحيلِ كَلَّفَ القائدَ المُغامِرَ سِتَّةً وثلاثينَ ألفاً من الرِّجالِ: فقد هَلَكَ أربعةَ عَشَرَ ألفَ جُنديٍّ في جِبالِ البيرنه وبلادِ الغُوليِّينَ، وعُشرونَ ألفاً في جبالِ الأَلْب، إلى جانبِ الخسَارةِ في المَواشي والأَبْقارِ والخُيولِ والفِيَلَةِ!

ـ ٢ ـ

عندما وصلَ هنيبعلُ بجيشِهِ المُتْعَبِ المُرْهَقِ، إلى سُهولِ إيطاليةَ الشماليَّةِ ظنَّ الرُومانُ أنَّ نَصْرَهم على هذا الجيشِ الصَّغيرِ المُمَزَّقِ قَريبٌ جِداً، فهؤلاء المُرتزقةُ الذين تَجَمَّعُوا من اسبانيةَ ولِيبيةَ ومِصْرَ وبلادِ الغُولِ والصّحراء الافريقيةِ طَمَعاً في الغنائمِ والكَسْبِ لَنْ يَصْمُدُوا طويلاً أمامَ أبطالِ الجيشِ الرُّومانيِّ وهم يُدافِعون عن أمّتِهم وبلادِهِم وأرضِهم، غيرَ أنَّ الرُومانَ أَخْطَأوا أيضاً في هذ الظَنِّ، ولم يُدْرِكُوا طاقَةَ هذا القائدِ القرطاجيِّ العَبْقَريِّ الذي سَحَرَ أولئكَ الجُنودَ بِقُوةِ شخصيتِه وقُدرتِه على انتزاعِ النَّصْرِ في أَحْلَكِ المَواقِفِ، وهو الذي جَعَلَ رجالَه يُؤمِنُونَ بالشِّعارِ الذي رَسَمَه لهم:

(النصرُ أوِ المَوْتُ) وإنَّ جَيْشاً يَلْتَزِمُ بِهذا الشِّعارِ لَقَادِرٌ على قَهْرِ خَصْمِهِ وانْتِزاعِ النَّصْرِ علَيْه، مهما تكُنْ قُوةُ الخصمِ وشِدَّةُ جَبَرُوتِهِ، وهذا ما سَنَراهُ خِلالَ المعاركِ المُظَفَّرَةِ التي خَاضَها هَنيبعلُ بِرجالِه الأَشِدّاء الشُّجعانِ حتى وصلَ بهم إلى أبوابِ روما التي رَكِبَها الرُّعْبُ لِعَجْزِ جَيوشِها عن صَدِّ الفاتِحِ القرطاجيِّ الظافرِ.

بدأَ الاحتكاك الأولُ بينَ هنيبعلَ **والجيوشِ الرومانيةِ بقيادةِ (سيبيو)** عندَ نَهرِ التيسَّانِ، وكانَ هنيبعلُ بحاجةٍ إلى إحْرازِ نصْرٍ خاطِف على الرُّومانِ لِتَقْويةِ مَعْنوياتِ جُنودِهِ، ولاثباتِ قُدْرَتِهِ على قَهْرِ الرُّومانِ لِتَطْمَئِنَّ القبائلُ الغُوليةُ إلى قُوَّتِهِ وتَنْضَمَّ تحتَ لوائه، وقد تَمَّ كُلُّ ذلكَ كما يُريدُه، بعدَ **مَعركةٍ كاسِحةٍ أَدَّتْ إلى تَضَعْضُعِ الجيشِ**

الرومانيّ وإصابةِ قائدِه بِجِراحٍ أَبعَدَتْه عن ساحةِ القِتالِ، وشعرَ الرُّومانُ وهم في غَمْرةٍ من الرُّعْبِ والفَوْضى بأنَّ الهزيمةَ قد حاقَتْ بهم، فَلاذُوا بالفِرارِ وطاردتْ فلولَهم فرسانُ هَنيبعلَ، لِتَقْضِيَ عليهم، وبعدَ هذا الانتصارِ أسرعتِ القبائلُ الغوليةُ لِلتّحالُفِ مع القَرطاجيينَ والانضمام إليهم، وأدركتْ **روما** أَن القضاء على هَنيبعلَ ليسَ بالأمرِ السَّهْلِ، **فَعَمدتْ إلى تَعْديل خِطَّتِها الحربيةِ، وأَحْجَمَتْ عن فَتْحِ جبهةٍ ثانيةٍ في افريقيةَ**، وكانتِ الجيوشُ المُعَدَّةُ لِغَزْوِ قَرْطَاجَةَ مُتَجَمِّعَةً في صِقِلِّيَّةَ، ومُتَأَهِّبَةً لِلإِبْحارِ إلى قَرْطاجةَ، فصدرَ إليها الأمرُ بالرُّجوعِ إلى إيطاليةَ، وبالتوَجُّهِ إلى السُّهول الشماليةِ للانضمامِ إلى جَيْش (سيبيو).

وعندما وصلَتْ تلك الجيوشُ بقيادةِ **(لُونغوسَ)** إلى مَيْدانِ القتالِ، وكان هذا القائدُ مُتَلَهِّفاً إلى

خوْضِ المعركةِ لِتَدميرِ الجيشِ القرطاجيَ، اعدّ له هنيبعلُ كميناً عندَ نَهْرِ (لاتريبنا)، ثُمّ آسْتَجَرَّ خصمَه، وهو يتظاهرُ بالتّراجُعِ أمامَهُ، فاندفَع الجيشُ الرومانيُّ صَوْبَ النهرِ الفَائضِ، حتى إذا اجتازُوه بعد أَنْ غَاصُوا في مياهِهِ المُثَلَّجةِ وَوُحُولِه برزَ لهم الكمينُ القَرطاجيُّ وأطبقتْ عليهم كَتيبةُ الفُرسانِ القَرْطاجيينَ. وتَمَّ **تطويقُ الجيشِ الرومانيِّ**، **وآنْدَحَرَ لُونغوسُ** تاركاً خلفَهُ ثلاثينَ ألفَ رجلٍ، سَقَطَ أكثرُهم في القتالِ، وأَلْقى كثيرُ منهم بنفسِه في النهرِ فَجَرَفَهُ التَيّارُ، ووقعَ الباقون أَسْرى، وعُدَّت **مَعْرَكَةُ (لاتريبنا) أولى مَعارِكِ هنيبعلَ الكبيرةِ** المُظفّرةِ في حَمْلَتِهِ العظيمةِ.

أما **معركةُ (تراسيمينَ) فهي الثانيةُ**، وكانَ الرومانُ فيها بقيادةِ **القُنْصُلِ فلامينيوسَ**، وكانَ

رَجُلاً باسِلاً عظيمَ الثقةِ بنفسِه، مِقْداماً يَسْتَخِفُّ بالخَطَرِ، فَعَمَدَ هنيبعلُ إلى اَسْتِفْزازِهِ لِيَجُرَّهُ إلى مَكانٍ ضَيِّقٍ يُطَوِّقُهُ فيهِ، ويُبيدُ قُوّاتِهِ، قبلَ أن يتمكَّنَ من إدْراكِ الفَخِّ المَنْصُوبِ له، وهكذا انطلقَ الرومانُ يُطاردونَ القَرْطاجيينَ حتى بَلَغُوا شاطىء (تراسيمينَ) وَوَقَعُوا في الفَخِّ، وانقضَّ عليهم الفرسانُ القرطاجيونَ الذين كانوا يَكْمُنونَ في المُرتفعاتِ، وقد كانَ الضَّبابُ المُخَيِّمُ على بُحيرة (تراسِيمينَ) وجِوارِها يُخْفيهم، وَدَبَّ الذُّعْرُ في صُفوفِ الرُّومانِ، ووَجَدُوا أنفسَهم في بُقعةٍ ضَيِّقَةٍ منَ الأَرْضِ، وقد حُشِرَ فيها سِتُّونَ ألفاً من الرِّجالِ، يتقاتَلُونَ في ضَرَاوَةٍ واستماتةٍ، وقُتِلَ فلامينيوسُ في المعركة، وسُحِقَ الجيشُ الرومانيُّ سَحْقاً، حتى لم يَنْجُ منه غيرُ نفرٍ قليلٍ، وكانتْ هذه الهزيمةُ من

أفدحِ الكوارث التي خلّتْ بروما في تاريخِها كلّهِ، وقد وقعتْ في حُزيرانَ عامَ ٢١٧ ق. م، وقد أطلق هنيبعلُ سراحَ الأسْرى غيرِ الرومان «لأنه ــ كما قال ــ ما جاء لِيُحاربَ الشعوبَ الايطاليةَ، بل لِيُنْقِذَ هذه الشعوبَ من طُغيانِ روما، ويَرْفعَ نيرَها الثقيلَ عن أَعْناقِ جيرانِها».

لم يَزْحَفْ هَنيبعلُ على روما بعد انتصارِهِ الكاسِحِ في تَراسِيمينَ، وفضَّلَ التريُّثَ والاستعدادَ قبلَ توجيهِ الضربةِ القاضيةِ، وتجمَّعَ سُكّان روما وقد استبدَّ بهم الذُّعْرُ لِيَسْتَمِعوا إلى أنباء المعركةِ الأخيرةِ، وقد أَيْقنوا أنَّ الجُيوشَ الرومانيةَ قد انهزمتْ في مَعْرَكَةٍ كبيرةٍ! وأَخَذ مجلسُ الشيوخِ يُوالي اجتماعاتِه لاتّخاذِ **التدابيرِ اللازمةِ لإنْقاذِ العاصمةِ المُهدَّدَةِ**.

ـ ٣ ـ

والمعركةُ **المُظَفَّرةُ الثالثةُ** التي كَبَّدَ فيها هنيبعلُ الجيوشَ الرومانيةَ هزيمةً نكراء هي **مَعْركةُ كان** عامَ ٢١٦ ق. م، وفيها تمكّنَ القائدُ القرطاجيُّ العبقريُّ من إرْغامِ الرومانِ على أن يُقابِلُوه، ووجوهُهم إلى المَشْرِقِ، لِتُضايِقَهم أشعةُ الشمسِ، فَتَصْعُبَ عليهم الرُّؤيَةُ الواضِحةُ، ولِيَصْفَعَ الغُبارُ وُجوهَهم، إذْ كانَ الهواء يَهُبُّ من الشَّرْقِ، وهو ما حدث بالفِعْلِ، وكان من أسبابِ هزيمةِ الرومانِ، قبلَ أنْ تَغِيبَ شمسُ ذلكَ النهارِ، وقد **امتلأ السهلُ الفسيحُ في ميدانِ القتالِ بِجُثَثِ خَمْسينَ ألفاً من الرُّومانِ القتلىٰ والأشْلاء والجَرْحى**، وكانتِ

الحماسةُ في قُلوبِ ضُبّاطِ هَنيبعلَ على أَشدِّها، فَرَحاً بالنصْرِ العظيمِ، وإصْراراً على مُتابعةِ القتالِ، وصاحَ أحدُهم (ماهَربعلُ) يسألُ القائدَ أَنْ يأمُرَهُ بالزَّحْفِ على رَأسِ فُرسانِهِ إلى روما، لِيُفاجِىء الرومانيين فيها، ويجتاحَ العاصمةَ الرومانيةَ، وقَدْ قَصَمَ انتصارُ هنيبعلَ ظَهْرَها وشَلَّ عزيمتَها، ولكنَّ القائدَ وقد أنهكَهُ الاعياء أجابَ بِأَنَّ تلكَ مرحلةٌ قادمةٌ يجبُ أنْ يَتَهَيَّأَ لها، فقال ماهربعلُ عند ذلكَ كلمتَه التاريخيةَ التي تناقَلَها المُؤرخونَ بعدَ ذلك عنهُ عَبْرَ القُرونِ:
«أنتَ يا هَنيبعلُ تعرِفُ أَنْ تَنْتصرَ، ولكنَّكَ لا تعْرِفُ أنْ تَسْتَفيدَ منَ الانتصارِ!»

لقد كانَ هَنيبعلُ **ينتظرُ الإمداداتِ** التي طَلَبَها من قرطاجةَ، ليجعلَ منها قُوّةً احتياطيةً، لافتقارِهِ إلى هذهِ القُوَّةِ الآنَ، لِحِراسةِ آلافِ الأَسْرى من

الرُّومانِ، ولكنَّ مجلسَ الشُّيوخِ في قَرْطَاجَةَ، وأكثريةُ أعضائه من جماعةِ التّجارِ الحريصينَ على مَصالِحِهم الصغيرةِ الخاصّةِ، والعاجزينَ عن إِدْراكِ مَدَى الخطرِ الرومانيِّ الذي يُهدِّدُ الدولةَ القَرْطَاجيةَ بالزَّوالِ، لمْ يتحرَّكْ لِنَجْدَةِ هَنيبعلَ ومَدِّهِ بالمالِ والرجالِ، وكانَ مَجلسُ الشيوخِ غَبِيّاً في مُواجهتِه لتلكَ الظُروفِ الدقيقةِ التي تَتَطَلَّبُ وَعْياً بأنَّ **قَرْطاجةَ إنما تَخُوضُ معركةَ البقاء أوِ الزوالِ أمامَ روما**، وأنَّ قائدَ جُيوشِها البطلَ **هنيبعلَ إنما يخوضُ معركةَ المَصيرِ**، وبَدَلاً من أَنْ تُلَبِّيَ قَرطاجةُ نداء بطلِها الظافِرِ أخذتْ تتلَهّى بالجَدَلِ العَقيمِ، **فأضاعَتْ بذلكَ فُرصتَها الذهبيَّةَ الكُبرى لِلْقضاء على روما!** وَلمّا كانَ هنيبعلُ بحاجةٍ كبيرةٍ إلى المالِ، فلَمْ يَجِدْ بُداً، وقد ضَنَّ تُجارُ قَرْطاجةَ عليهِ بهِ، مِنْ

أنْ يَعْرِضَ على أَسْراهُ الكثيرينَ افتداء أنفُسِهم بالمالِ، ففعلَ ذلك وهو يَعلمُ أنَّ روما سَتُؤَلِّفُ منهم جَيْشاً جديداً يَعُودُ إلى مُحاربتِهِ، وبذلكَ كانَ خَطأَ قَرطاجةَ في خِذْلانِها بطلَها العظيمَ قاتِلاً، لأنّ **روما بعدَ هزيمةِ جُيوشِها في كانَ أصبحتْ لا تملكُ أيةَ قوةٍ تَحْميها**، ولو أَتْبَعَ هنيبعلُ انتصارَهُ بالزَّحْفِ عليها لاحتلَّها وأباحَها لِجُنودِهِ، وَوَضَعَ بذلكَ نهايةً فاجعةً للدولةِ الرومانيةِ.

ويرى بعضُ المؤرخينَ أن هنيبعلَ تَريَّثَ بعد مَعركةِ كانَ لِيَتركَ لروما مجالَ المُفاوَضَةِ، وتكونَ البادئةَ بطلبِ الصُّلْحِ، وهذا هو سِرُّ إحْجامِهِ عن مُتابعةِ الزحفِ على العاصمةِ الرومانيةِ، ولكنَّ روما خَيَّبَتْ ظَنَّ القائدِ القرطاجيِّ المُنْتَصِرِ، **وأَصَرَّتْ على مُتابعةِ القتالِ ومُواصلةِ الحربِ حتى النصرِ أو**

الموتِ! وأمامَ عِنادِ روما وصلابَتِها وتَصْميمِها أيقنَ هنيبعلُ أنَّ مصيرَ الحربِ أصبحَ غامِضاً ومَحْفوفاً بالمَخاطرِ، وصارَتْ رُوما تَعتمدُ على عُنصرِ الزَّمَنِ في الاكْتفاء بالمُناوشَاتِ الصغيرةِ، والعَوْدةِ إلى الاعتصامِ وراء الحُصونِ والاستحكاماتِ المَنيعةِ، دُونَ الإقْدامِ على خَوْضِ معاركَ كبيرةٍ وحاسمةٍ، وقد عاوَدَ هنيبعلُ الطلبَ من قرطاجةَ لِتُرسلَ إليهِ المُساعداتِ، وكانَ رسولَه إليها أحدُ إخوتِه (ماغونُ) الذي تصدّى لَهُ زعيمُ حِزْبِ التجارِ حَنُّونُ في مجلسِ الشُّيوخِ بقولِهِ: «لماذا يطلُبُ هنيبعلُ مساعدتَنا إذا كانتْ أخبارُ انتصاراتِه حَقيقيةً، أمّا إذا كانتِ الأنباء التي يُرسِلُها إلينا مُزَوَّرَة، فهو لا يَسْتَحِق أَيَّةَ مُساعدةٍ منا!!»

لم يُدرِك حَنُّونُ أنَّ الصِراعَ القائمَ بينَ رُوما

وقرطاجةَ هو صِراعُ مَوْت أو حياةٍ، وأنَّ النصرَ في هذا الصِّراعِ سيكونُ من نصيبِ القادرينَ على الموتِ في سبيلِه، المُستعدِّينَ لِبَذْلِ الأرواحِ رخيصةً لِيَتمكَّنُوا من النَّصْرِ والبقاء، أمّا الخصمُ المهزومُ المقهورُ فلا يبقى له إلاّ الموتُ والفناء والزوالُ!

وهكذا لم يَصِلْ إلى هنيبعلَ من قَرطاجةَ سِوى عددٍ قليلٍ من الفِيَلَةِ وبعضِ التعزيزاتِ من الرّجالِ، ولكنَّ القائدَ القرطاجيَّ العظيمَ حافَظَ على ما كانَ لديْهِ من قُوّات، فأقامَ في قَلْبِ إيطاليةَ خَمْسَ سَنواتٍ أخرى، والرومانُ يكتفُونَ بالمُناوشاتِ وبتَطْويقِ قُوّاتِه من بعيدٍ، **وتَوالَتْ عليه سِلْسِلَةٌ من الخَيْبَاتِ المُتواليةِ:** فحليفُهُ فِيلبوسُ الخامسُ المَقْدُونيُّ خَذَلَهُ، وسَقَطَتْ سِيراقُوزَةُ المنيعةُ (سَرَقُسْطَةُ)، وأَخُوه أَزْروبعلُ الذي ظَلّ مُحتفظاً

باسبانيةَ هبَّ لِنُصْرَتِهِ، فاجتازَ الألْبَ بعدَ تِسْعِ سنوات من مُرورِ أخيهِ فيها، ولكنَّ الرُومانَ تصدَّوْا لهُ قبلَ أن يَصِلَ بالنّجْدَةِ إلى أخيهِ، وهَزَمُوهُ في شماليِّ إيطاليةَ، وحملوا رأسَهُ وألْقَوْا بهِ في مُعَسكَرِ هنيبعلَ، وبذلكَ لم يَبْقَ لدى القائدِ القرطاجيِّ الكبيرِ أَمَلٌ في دَحْرِ رُوما، وتَفَشّى في جَيْشِهِ الطاعونُ، وقسا عليهِ القَدَرُ، وفي هذه الظُروفِ القاسيةِ **رُزِقَتْ رُوما الرجلَ الذي قُدِّرَ لهُ أنْ يكونَ مُنقذَها** وهو **بُوبليوسُ شيبيو** الذي يُطلِقُ عليه المؤرخونَ اسمَ **«هَنيبعلَ روما»** وقد تمكّن هذا القائدُ الرومانيُّ الباسلُ من كَسْبِ معارِكِه في إسبانيةَ فاستولى على قرطاجنَّةَ ثمَّ عبر إلى إفريقيةَ، فباتتْ قرطاجةُ نفسُها في خَطَرٍ، وأصبحَ أهلُها بعدَ هزيمةِ جيشِهم أمامَ شيبيو يتَلَهَّفُونَ إلى عَوْدَةِ

بَطَلِ قَرْطاجةَ الأعظمِ هَنيبعلَ لِلّدفاع عنها، وعقدَ مجلسُ الشيوخِ فيها جَلَساتٍ صَاخِبةً، واتخذَ قراراً باسْتِدْعاء هَنيبعلَ، نُزُولاً عند رغبة الشَّعْبِ لإِنقاذِ افريقيةَ من الاحتلالِ الرُّومانيِّ، ووصلتِ الدعوةُ إلى هنيبعلَ: **«عُدْ إلى افريقيةَ مع جُنودِكَ جميعاً، وأَسْرِعْ ما استَطعتَ، إنّ قرطاجَةَ في خَطَرٍ!»**

وبانتظار عودةِ البطلِ المُنْقِذِ كانَ على قَرطاجةَ أنْ تكسَبَ الوقتَ، بالدُّخُولِ مع شيبيو في مُفاوضات لِلصُّلْحِ، وقبلتِ الشروطَ التي قَدّمَها القائدُ الرومانيُّ إليها، وأرسلتْ وفداً إلى روما يَطْلُبُ من مَجْلِسِ شُيوخِها المُوافَقَةَ على الصُّلْحِ، في حينَ كان هنيبعلُ يُبحرُ عائداً إلى افريقيةَ بأسطولِه الصغيرِ.

الباب الخامس

عودةُ البطلِ إلى قَرْطَاجةَ
وحركتُه الإصلاحيةُ

٢٠٣-١٩٢ ق. م

— ١ —

وصل هنيبعلُ مع العائدينَ من رجالِهِ القلائلِ إلى إفريقيّةَ في فصلِ الخريفِ عامَ ٢٠٣ ق. م. وأقامَ مُعَسْكَراً لِتَمْضِيَةِ الشتاء وانضمَّتْ إليهِ القوّاتُ القرطاجيَّةُ المُحاربةُ، وانصرفَ القائدُ العظيمُ إلى تنظيمِ جَيْشِهِ وإكمالِ عُدَّتِهِ الحربيةِ، وقد أدركَ خطرَ الموقفِ، لافتقارِ الجيشِ إلى قوّةٍ كافيةٍ من الفُرْسَانِ، وكانتْ انتصاراتُ هنيبعلَ تعتمدُ دائماً على فُرسانِهِ وقُدُراتِهم القتاليةِ، وكانَ النُّوميديُّونَ يُشكِّلُونَ أكثريةَ أولئكَ الفُرسانِ، أمّا الآنَ فقد انضمَّ الملكُ النُّوميديُّ ماسينيسا إلى سيبيو، بأربعةِ آلافٍ من الفُرسانِ الأشاوِسِ، فَقَوِيَ بهم

جيشُ الرومانِ، وازدادتْ حاجةُ الجيشِ القرطاجيِّ إلى أمثالِهم؛ ولِكَيْ يدفعَ سيبيو هنيبعلَ إلى القتالِ دُون تَرَيُّثٍ أَقْدَمَ على قَطْعِ الأشجارِ وحَرْقِ المَحاصيلِ، فأرسلتْ قَرطاجةُ تستغيثُ بِهَنيبعلَ، مُتَخَوِّفَةً من المَجاعةِ، وطالبةً أن يُسْرعَ بِضَرْبِ سيبيو لِيكُفَّ يدَه عن التدميرِ ونَشْرِ الخَرابِ، فأسرعَ هنيبعلُ لِلقاء خَصْمِهِ على مَقْرُبةٍ من **(زاما)**، وأرسلَ إليهِ وَفْداً يَعْرِض عليهِ أن يَتَقَابَلا قبلَ المعركةِ الفاصلةِ، وقبلَ القائدُ الرومانيُّ ذلكَ، وتَمَّتِ المُقابلةُ التاريخيةُ بينَ القائدَيْنِ وَجْهاً لِوَجْهٍ، ولم يتمَّ التفاهُمُ بينهما على الصُّلْحِ، فافترقا لِتَقَعَ **معركةُ زاما** في فجرِ اليومِ التالي، **وكانتْ من أعظمِ معارِكِ التاريخِ القديمِ،** وأطلق هنيبعلُ فِيَلَتَه الثمانينَ صَفاً واحِداً في الهُجومِ، فأخذَ الرُّومانُ يَنْفُخُونَ في الأَبْواقِ

ويَقْرعونَ الطُّبولَ والصُّنوجَ، فأَجْفَلَتِ الفِيَلَةُ، ولا سِيّما الوحشيةُ منها، وٱرْتَدَّتْ على أَعْقابِها، وفي الوقتِ نفسِه هجمَ فُرسانُ ماسينيسا النوميديون هُجُوماً صَاعِقاً انكشفَ أمامَهُ فُرسانُ قَرطاجةَ، **ودارتِ الدائرةُ على جَيْشِ هَنيبعلَ ، كانتِ المعركةَ الوحيدةَ التي خَسرها في حياتِه،** وانسحبَ القائدُ القرطاجيُّ مُتَقَهْقِراً، ودُعِيَ إلى قرطاجةَ حيثُ قابلَ مجلسَ الشيوخ لأولِ مرةٍ في حياتِه، وأعلنَ لهم رأيَه، ناصِحاً بِطَلَبِ الصُّلْحِ، إذا كانت قرطاجةُ تُريدُ أن تَنْجُوَ منَ الدّمارِ!

كانت شُروطُ الصُّلْحِ قاسيةً ومُذِلَّةً لِقَرْطاجةَ: فعليْها أن تَتَخَلّى عن كُلِّ ما تملكُ في أوربةَ، وتتنازلَ عن حَقِّها في إعلانِ الحَرْبِ إلا بإِذْنٍ من روما، وتتعهَّدَ بِمُساعدةِ الرُّومانِ بَرّاً

وبَحْراً، وتُصالحَ الملكَ النُوميديَّ ماسينيسا وتَرُدَّ إليهِ أملاكَه، وتُسَلِّمَ جميعَ العبيد الهاربينَ والجنودِ الفارّينِ من الجيشِ الرومانيِّ، وتدفعَ غرامةً حربيةً سَنويةً كبيرة لِمُدّةِ خَمْسِينَ عاماً، وتُسلِّمَ لِروما مائةَ رهينَةٍ يَخْتَارُها شيبيو، لِضَمانِ تَنْفيذِ الشُّروطِ!

لقد آنَ لِقَرْطاجةَ أَنْ تدفعَ ثمنَ غَباء شُيوخِها وامتناعِهم عن إِمْدادِ بَطلِها الناتجِ العظيمِ بالمالِ والنَّجَداتِ، وهو على أبوابِ روما، ومن أينَ لِقَرْطاجةَ أنْ تدفعَ الغَرامةَ السنويةَ الثقيلة كُلَّ عامٍ، وخَزينةُ الدولةِ فارغةٌ، والشعبُ يَشْعُرُ بالإنْسِحاقِ أمامَ ذُلِّ الهزيمةِ وشُروطِها! **كانتْ قَرطاجةُ تَسِير نحوَ الفوضى، وكانَ لا بُدَّ لها من مُنْقِذٍ**، يَنْتَشِلُها من أيدي مُسْتغلِّيها وحُكّامِها التجّارِ العَاجزينَ الأغبياء.

وهكذا وَجَدَ هنيبعلُ نفسَه مَدْعواً إلى خَوْضِ غمارِ السياسةِ، لِلقيامِ بالإصْلاحاتِ الضروريةِ لِتطهيرِ الإدارةِ من الفَسادِ وإنْعاشِ الحياةِ الاقتصاديةِ المُتَرَدِّيَةِ، وإنقاذِ الوطنِ منَ الفَوْضى والدّمارِ.

ـ ٢ ـ

بعدَ مُرورِ سِتِّ سَنَوات على معركة (زاما) **رَشَّحَ هـنـيبعـلُ نـفسَـه** عـامَ ١٩٥ ق. م **لِـمَـنْـصِـبِ (الشُّوفط) أي أحدِ رئيسَيْ الدولةِ**، ففازَ بأكثريةٍ كبيرةٍ، وتَوَلّى القائدُ العسكريُّ مسؤولياته المدنية الجديدةَ لِينصرفَ بِكُلِّ همَّتِه إلى إجْراء عَدَدٍ منَ **الإصْلاحاتِ الإداريّةِ والإقْتصاديةِ**: فَطَـهَّرَ السِلْكَ الاداريَّ من الفسادِ، وعملَ على سَنِّ قَوانينَ تُجَرِّدُ الشُّيوخَ مِنْ حَصَانَتِهم وتجعلُهم خاضِعين للأنظمةِ والقَوانينِ، وقَصَرَ مُدَّةَ ولايةِ مجلِسِهم على سَنَةٍ واحدةٍ، وحَظَرَ تَجديدَ انتخابِ رئيسٍ سابقٍ، وأنْشَأَ ديوانَ تَفْتيشٍ ومُحاسَبَةٍ، لِتنظيمِ الضَّرائبِ، وضَبْطِ الجِبايةِ

ومَنْعِ الاختلاسِ، وبذلكَ تَمكَّن من جَمْعِ الأموالِ لِدَفْعِ الغَرامةِ السنويَّةِ دُون حاجةٍ إلى فَرْضِ ضَرائبَ جَديدةٍ، وأخذتِ الحياةُ الاقتصاديةُ تَنْتَعِشُ، **وصَارَ أعداءُ هنيبعلَ يَزْدادونَ،** وكلُّهم منَ الفاسدينَ والـمُـرْتَشِين وذوي المَصالحِ التي حالَ هنيبعلُ دونَ استغلالِهم إيّاها، وراحَ هؤلاء يَمْكُرونَ وَيدُسُّونَ، ويُوالُون الوِشاياتِ إلى مجلِسِ الشيوخِ الرومانيِّ، باتّهامِ هنيبعلَ بالاستعدادِ لِلْحَرْبِ، وإقامةِ تَحالُفٍ مَعَ ملكِ سُوريّةَ أَنْطيوخُوسَ الثالثِ لِلقضاء على الدولةِ الرومانيةِ، وكانَ لِتلك الوشاياتِ أثرُها في روما، إذْ كانتْ تتأهَّبُ يَومذاك لِحَرْب أنطيوخوسَ، **ولكنَّ (شيبيو) دافعَ عَنِ البطلِ القرطاجيِّ** وفَنَّدَ أحقادَ الوُشاةِ، وأعلنَ لِمجلسِ الشيوخِ أنّه **لا يَليقُ بروما وكرامتِها أن تُرْهِقَ بَطَلاً كبيراً لِتُرضيَ**

أحْقَادَ وُشاةٍ حَقيرينَ لا ضَمائرَ لهم!

وعلمَ هَنيبعلُ بما يُدبَّرُ له، وأدركَ أن رُوما لن يطولَ بها الوقتُ حتى تَطْلُبَ تسليمَه إليها، وبلغَ به اليأسُ أمامَ غَباء التجّارِ من شُيوخِ قَرطاجةَ، وضيقِ أفُقِهم واستهانتِهم بالمصلحةِ الوطنيةِ في سَبيلِ مصَالِحِهم الخاصَّةِ، **أَنْ عَزَمَ على تَرْكِ قَرطاجةَ لِقَدَرِها البائسِ الحزينِ.**

خاتمةُ المطَاف

نهايةُ المأساةِ

١٩٢-١٨٣ ق. م

كانَ خُصومُ هنيبعلَ السياسيونَ في قَرطاجةَ رجالاً ضيِّقي الأُفُقِ، يَحْسُدونَ رَجُلاً عبقرياً، ويتآمَرون عليه للتخلُّصِ منه، فَخَسِرَتْ قَرطاجَةُ بذلكَ بطلَها ورَجُلَ إصْلاحِها وإنْقاذِها، إذْ أَبحَرَ خِفْيَةً إلى سُوريةَ، لاجئاً إلى ملكِها أَنطيوخوسَ، الذي استقبلَ ضَيْفَه العظيمَ بالعِناقِ الحارِّ والترحيبِ الحَماسيِّ، وطلبَ مَشُورتَهُ في التصدِّي لروما وحَرْبِها، وقد أصيبَ الرومانُ بِصَدْمَةٍ قاسيةٍ عندما

عَلِمُوا بالتجاء هَنيبعلَ إلى عَدُوِّهم ملكِ سوريةَ، صاحبِ الامكاناتِ الحربيةِ الهائلةِ!

وآنْدلَعَتِ الحربُ بين أنطيوخوسَ والرومان عامَ ١٩٢ ق. م وكان هنيبعلُ يُحاولُ إقناعَ مُضيفِه بخُططِهِ الحربيةِ. دونَ جَدْوى، وخانَ الحظُّ ملكَ سُوريةَ، فقد دُمِّرَ أسطولُه، وهُزِمَ جَيْشُهُ، وانتصر الرُّومانُ عليهِ عامَ ١٨٨ ق. م، فطلبَ الصُّلْحَ منهم، وخشِيَ هنيبعلُ أن يُطالِبَهُ المنتصرونَ بِتَسْلِيمِهِ لهم، فعَمَدَ إلى الفِرارِ على ظَهْرِ سفينةٍ في جُنحِ الليلِ، **لاجئاً إلى مَلِكِ بيثينيا**، وهي دولةٌ أخرى كانتْ في حرب مع روما، فاستقبلَهُ الملكُ واتَّخَذَه مُسْتَشاراً له، على الصَّعِيدَيْنِ العَسْكريِّ والسياسي!

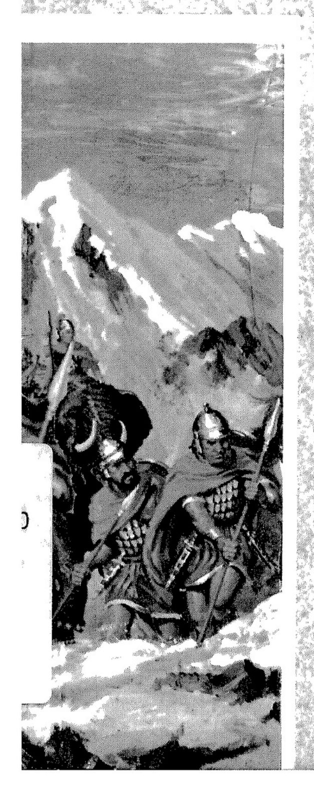
ولكن روما اكتشفتْ مَقَرَّ عَدُوِّها الألَدِّ، فأرسلتْ بعثةً تُطالِبُ بتسليمِه إليها، ولم يكُنْ ملكُ

بيثينيا قادِراً على حِمايتِه، وعندما أحاطَ به الجُنودُ الرومانيونَ لِيقْبضُوا عليه، **تناول سُمّاً** كانَ يحتفظُ بهِ لِمثْلِ تلكَ السّاعةِ في خاتِمهِ، ووضعَ بنَفْسِهِ نهايةً لِحيَاتهِ عام ١٨٣ ق. م وبذلكَ **انتهتْ مأساةُ بطلٍ عَبْقري عظيمٍ**، تَركَ في التاريخِ الحربيِّ صفحات مجيدة خَلَّدَتْ ذِكْرَهُ، وجَعَلَتْ منه واحداً من أفْذاذِ الأَعْلامِ القَادةِ المُبَرِّزينَ.

المحتوى

سلسلة في عشر حلقات تعرض سيراً موجزة
أعلام مبرزين من الشرق والغرب

١ـ الاسكندر الأكبر
٢ـ هنيبعل
٣ـ أبو العلاء المعرّي
٤ـ ابن بطوطة
٥ـ ابن خلدون
٦ـ كريستوف كولومبوس
٧ـ ولميم شكسبير
٨ـ نابليون بونابرت
٩ـ ليون تولستوي
١٠ـ المهاتما غاندي



سلسلة صغيرة تغنيك
عن مكتبة كبيرة

دار الشرق العربي
بيروت ـ شارع سورية ـ بناية درويش
ص.ب: (٦٩١٨ ـ ١١)